فتيات الأزقة

فتيات الأزقة

رواية

إيناس حسن القاهوقي

تصميم الغلاف: محمد علي

تدقيق لغوي :أنس محمد صادق

رقم الإيداع: 2350 /2020

I.S.B.N:978- 977-6640-85-6

الطبعة الأولى2020م

للنشر والتوزيع

الإدارة: 17 ش عزت باشا المطرية، القاهرة.

المدير العام: آية سعد الدين

مدير النشر : د. رامي عبد الباقي

هاتف: 01099387500 - 01147633268

E – mail:zeinpublish2017@gmail.com
Facebook: Zein Publish

جميع الحقوق محفوظة©

إيناس حسن القاهوقي

فتيات الأزقة

رواية

زين للنشر والتوزيع

معلومة هامة للغاية قبل أن تقرأ لي: -

إن لم تكن من أولئك الذين يؤمنون بأن الدعاء يغير الأقدار فلا تقترب من تلك الصفحات، أما إن كنت من الكارهين للروايات المدونة بالفصحى وتشعر بالملل فلا تقترب أيضا، وعلى الأشخاص الذين لا يفضلون كتابات العامية ألا يشترون الرواية وأن يتركوها، فلا داعي لأخذها ثم نقدي بأنني لا أرقى لأي من المستويات الأدبية، أما عن أولئك الذين يخشون القراءة لكُتَّابٍ تظهر أسمائهم للمرة الأولى على غلاف إحدى الروايات ألا يشترونها فهي المرة الأولى التي أختط فيها شيئا ليقرأه أحد.

....

ولكن لمَ لا، فكل ما أطلبه أن تؤمن بي، دعنا نمسك بيد بعضنا البعض لنعيش بين تلك الكلمات، لعلى عند مفارقتي لك في آخر صفحة تحزن على ذلك.

عزيزي القارئ، أحدثك بعزيزي ونحن لم نلتق من قبل ربما لأن الكتاب كاذبون!

فدائما ما تحذرني أمي ممن يكتبون ومن الممثلين ولاعبي الكرة، تخبرني بأن النوع الأول يؤلف ويكذب على الناس، فما

بالك بفتاة ساذجة تصدق شخصًا من ذاك الوسط وتقع في غرامه؟

أما عني فلن أكلفك عناء سماع قسمي بأنني سأقول الصدق في صفحات نثرت بالحبر، سأدعك أنت تبحث عن الصدق بداخلي لتخرجه، وتضع المرآة أمام وجهي، وتصرخ طالبا مني أن أتوقف عن إظهار المثالية، وأنا أقص عليك حياة "فتيات الأزقة" البائسة...

***

حسنًا، دعوني أحدثكم عن الأرواح التي سأهدى إليها الرواية، فهي أكثر من يستحق.

علينا الانتباه بعض الشيء، فكل روح مهدى إليها كلماتي هي شبح لا يسكن خيالي بل يسكن تلك الصفحات، وأكثرهم تأثيرًا بذهنك منذ الإهداء هو ذاك الذي ستتمنى في الصفحات المقبلة لو أنك لم تعجب به من اللحظة الأولى.

علينا أن نكون أشخاصًا مهندمين بعض الشيء،

أظن أنني سأستخدم الحروف الأبجدية لأضع إهدائي:

أ_ إلى تلك الروح المسكينة في خيال ضحى التي تمنت لو أنها تسكن قصرًا فاخرًا بدلًا من ذاك الكشك الصفيحي، نسيت أن أخبركم بأنني أكثر الأشخاص سوءًا على الإطلاق، فذكرى لاسم ضحى لن تجدوه داخل الرواية، هي في الواقع بطلة قمت بتبديل اسمها كما وعدتها.

ب_ إلى روحه البائسة الكاذبة ذاك الذي يعبث بقلوب الفتيات مستغلًا حلمهم ويحدثهم عن تلاقى أرواحهم بروحه، وأنه يعشق تلك الروح فيجردها من ثيابها ويفض بكر أنوثتها في خياله المريض "ألا لعنة الله على خيانتك، ألا لعنة الله على غرامك الزائف لي وحبي لك".

أظنكم قد عرفتم أنني في تلك الرواية أتحدث عن لعنة خيانة قد أصابتني، لا عليكم، الرواية بها جزء من التهكم على أحد الذين لوثوا حياتي واطلب منكم الآن رفع أيديكم للدعاء عليه معي.

ج_ إلى روح دارين الطاهرة التي رقد جسدها في سلام وظلت روحها المقتولة تحوم حولي منذ كنت أحد الشهود على ذبحها.

حسنا، هذا هو الإهداء، لا عليكم به.

الفصل الاول: -

لنتفق على أنني أكثر الناس خوفًا من روايات الرعب، أتسائل كيف يكتبها أصحابها؟ فمن المتعارف عليه أنه إن دونت مشهدًا عن موت أحدهم أو فقدانك لقصة حبك فعليك أن تكون أكثر تأثيرًا، فمن الممكن أن تبكي وأنت تدونه، فذاك سيجعل القارئ يشعر بما اختطه في أوراق روايتك، عليك أيضا أن تكون أكثر سعادة وسرورا، وكأنك من يعيش الأيام المفرحة داخل الرواية لتستطيع إيصال إحساسك.

هذه قوانين بعض الكتاب، وأظن أنهم على صواب ولكن كيف يشعر كتاب الرعب بذاك الرعب ويستطيعون إيصاله باحترافية لجمهورهم؟!

هل يقتلون أحد الحيوانات وينثرون دمائه على حيطان غرفتهم، ويملئون البانيو ببعض تلك الدماء ويخلطونها بالماء ويضعون الصور المرعبة وبعض الجماجم البشرية والهياكل ويشعلون الشموع وموسيقى الرعب في غرفهم؟

لا علينا، هم من وجهة نظري كالذئاب المفترسة، أو بعض الجان المتلذذين بأكل لحوم البشر.

ولتصبح كاتبًا متمكنا عليك الاطلاع على جميع أنواع الكتابات، وحقيقةً، اللعنة على هذه القاعدة التي تشعرني بالخوف، أردت فقط تسجيل تاريخ اليوم لأنه المرة الأولى التي أقرأ فيها قصة رعب لكاتب مغمور، أتمنى أن تكون بدايتي موفقة وألا يخيب ظني بإن تكون الأحداث بسيطة لا تصل لحد رعب الافلام الأجنبية، فهو في الأخير شاب مجهول لم يقرأ له أحد ولم تباع روايته ليسمع الناس عنه.

من المؤكد أنك ستشعر بأن أصعب شيء قد تمر به أن تفقد عزيزًا عندك، ولكني قد فقدت نصفي الثاني.

اسمي حسن، أبلغ الثامنة عشر من عمري، سألتحق عما قريب بالجامعة، فسعادتي وأخي لا توصف، لقد عبرنا عنق الزجاجة معًا مقتربين من الحلم، حسين هو شقيقي التوأم، قد رأيت الكون بعينيه، دائما بجانبي، أشعر به حتى وإن كان بعيدًا وقد اكتفى والدينا بنا وقررا ألا ينجبا مجددًا.

استطعنا الانتهاء من الثانوية العامة، حتى إننا قد حصلنا على نفس المجموع 90%، لنلتحق معا بالجامعة التي أردناها ونصبح معلمين مثل أبينا.

ومع تلك المناسبة، قرر أبي الاحتفال بنا والسفر إلى مطروح لقضاء يومين معا وحين انتهت العطلة وفى طريق العودة، والتي أظن أن جميعنا قد عاد إلا أخي حتى وإن كان جسده بجواري على كرسي السيارة

طوال الطريق وهو غارق في نومه ويتناوب في عقولنا أنه قد تعب من السفر، لنصل أخيرًا ويحاول أبى إيقاظه فلا يستفيق.

أعلم أن نوم أخي ثقيل ولكنى قد شعرت بألم في قلبي، فدفعت أبي ليبتعد عن أخي وأبدأ في تحريكه ويتعالى صوتي:

- حسين اصحى، حسين فوق إحنا وصلنا، اصحى بقى احنا وصلنا.

ليبعدني أبي عنه ويضع يده على رقبته ويأخذ السيارة بعدها إلى المشفى، حتى لا أطيل عليكم "حسين تعيشوا إنتوا" تقرير حالة الوفاة أنه قد مات بسكته قلبية، ولم يكن أخي مصابًا بشيء، هو دائما معافى ولكن ذاك قضاء الله.

لأظل في المشفى نحو أسبوع وتجاورني أمي، مسكين أبى قد تحمل وفاة ابنه ومرض زوجته وابنه الثاني، وحين عدنا للبيت كنت أشتم رائحة حسين ولكن لا أذكر ذلك، فيكفي أمي ما تشعر به، لا أريد أن أزيد من الآمها.

لا أستطيع وصف حجم الوحدة التي كانت بداخلي، أشتاق له فلا حياة لي من دونه، فحياتي الآن متوقفة عليه بمعنى الكلمة، فقررت أن أخرج لأتمشى، فوجدت رجلًا كبيرًا في السن يضع كتبا على الرصيف، ف أردت أن أبتاع لنفسي بعضهم لكسر وحدتي، ليقع بصري على كتاب قد جذبني اسمه "ما يجوز ويباح في تحضير الأرواح".

حين رآني البائع أمسك به قال لي أنصحك به، فهو يحمل مغامرة قوية، بإمكانك ورفاقك تحضير الروح التي تريدونها والحديث معها أيضا.

_بجد أي روح؟!

_أيوه طبعا

_طب إزاي

_اقرأ وأنت هتعرف

لا أعلم عدد الخطوات التي قطعت بها الطريق لأصل للمنزل متلهفا لما سأقرأه، الأمل بداخلي لألتقي بأخي، فقررت البحث عن اسم الكتاب على النت، ولكن لا أثر له، إذن هو مجهول؟ لا عليَّ بذلك، فكل ما ينقصني الآن هو أن أستطيع إخراج أبي وأمي من البيت، وقد ساعدني القدر في ذلك حين اتصلت خالتي بأمي وأصرت على أن ترافقها إلى كفر الزيات لتخرجها من حزنها، وقد تحججت بأنه كيف لي أن نترك أبي جميعنا ونسافر، فإنني سأبقى معه ولن أستطيع مرافقتهم، وفى تلك الليلة كان على أبي التأخر حتى الفجر في عمله.

بت بمفردي والآن أفتح الكتاب، في بدايته تحذير لم ألتفت إليه، قلبت الصفحة لأبدأ الخطوات وعمل الطقوس بعد صلاة العشاء، وكان عليَّ الصوم قبلها لمدة ثلاث ساعات.

الخطوة الثانية أن أحضر منضدة وأضع عليها وجبه دسمة وفي المنتصف شمعة، وقد استغرق ذلك وقتًا حتى اقتربت من منتصف الليل، حان الوقت، عليَّ إطفاء الأنوار وإشعال الشمعة، وبدأت في قراءة الطلسم:

"لقد وافقت على شروطكم وأحكامكم ومضيت العقد معكم، أتوسل إليكم بحق النار، بحق ملوك الجان السبعة، بحق رفض السجود، بحق ملك الخلود، أقسمت عليكم أن

أحضروا لي روح أخي حسين، افتحوا الباب لروحه وأخرجوه لي الآن".

وقد بدأت أسمع صوتًا في الغرفة واهتزاز الشمعة بطريقه غريبه قبل أن تنطفئ لأخرج الثقاب وأشعلها مجددا، لأجد أمامي شيئا قد جعلني أنتفض واقعًا على الأرض وتهتز المنضدة والشمعة فتنطفئ نهائيا.

- أنا سامع صوت أنفاسك يا حسين، انت ظهرت؟

حسنا، عليّ إعادة إشعال الشمعة، فأنا لا أرى إلا عينين مخيفتين، وكلما استمر مكوثك ف الظلام استطعت التأقلم ورؤية ما حولك، وذلك ما حدث لي، أحدث نفسي ب "أيوه هو حسين، نفس الملامح".

وقفت لأخطو نحوه ولكن قد ظهرت لي الملامح بشكل أكبر، استطعت الآن رؤية أخي أو روح أخي ولكن ما هذه العين الغريبة ونظرته الحاملة للشر، والابتسامة التي لم أر أخي يقتسمها يوما؟

ذاك ليس أخي بل شيطان يتجسد في شكله وقد بدأت أشعر بفقداني للقدرة على التحرك.

- لقد دعوتني ورفعت عني الحجاب، ولبيت دعوتك أيها الإنسي.

= أنا كنت عايز أخويا مش عايزك أنت.

لتظهر عليه علامات الغضب فتحرك نحوي، وقتها قذف المنضدة بجانبي فلم أشعر بنفسي ولا بما يحدث.

- حسين أنت فوقت يا حبيبي؟

كنت أشعر بألم شديد في رأسي جعلني أعجز عن فتح عيني، وقد وجدت أمي بعدها تركض نحو غرفتي

- الحمد لله يا حبيبي إنك فوقت، أنا مش ناقصة يا ابني كفاية أخوك.

= هو إيه اللي حصل؟!

- أنا رجعت بدري علشان أقعد معاك، كانت حوالي الساعة واحدة ونص، دخلت البيت سمعت صوت حنفية الحمام مفتوحة، قعدت على كنبة الصالة مستنياك تخرج بس صوت المياه زاد وأنت غيبت أوى، قومت أطمن لقيت المياه وصلت الصالة، جريت على الحمام وفتحت الباب ما لقيتش غير قطة! أول ما شافتني جريت واختفت، يمكن كان بيتهيألى إني شفتها، دخلت أوضتك أدور عليك لقيتك مرمي على الأرض، طلعت بيك على المستشفى ولسه راجعين امبارح.

= يعنى إيه خرجت امبارح؟ هو أنا روحت المستشفى إمتى؟

- يا ابني الكلام ده من أسبوع، بتقعد تفوق وتقول حسين وتنام تاني، وبعدين القطة دي إيه اللي جابها هنا، أوعى تكون اشتريتها يا حسن أنت عارف مش بحب الحجات دي في البيت.

= اه أنا اشتريتها تسليني.

- الحمد لله إنك قومت بالسلامة.

خرج أبي، وأنا لا أفهم ما قاله، مر أسبوع! وما هذه القطه؟! أنا لم أترك حنفية الحمام مفتوحة؟

تمنيت لو أننى لم أستفق من غيبوبتي، فكل يوم عند الثانية عشرة، أجد القطة واقفة على سور البلكونة تنظر نحوي وتراقبني، كأنها تنتظر نوم من بالبيت وبقائي بمفردي فتصدر صوتًا غريبًا، قد أيقظت أبي مرة لأسأله هل سمع الصوت فأخبرني بأنه لم يسمع شيئا، فأدركت أنني فقط من أسمعها، تصدر الصوت وتختفي لأستدير وأجد ذلك الشيء يردد:

- أنا مش لعبة معاك، أنا هندمك على اليوم اللي فكرت تجيبنى فيه.

بات يطاردني في كوابيسي "مش هسيبك، أنا معاك لحد ما تموت".

= امشي، أنا آسف، أنا غلطان إنك وحشتني، خلاص مش عايز أشوفك.

قد كرهت أخي وأصبح بمثابة عملي الأسود الذي حوَّل أيامي لجحيم، لم أعد أستطيع العيش وأمي تموت كل يوم لما أنا فيه، فأنا بت في حالة غريبة، منذ فترة طويلة أستفيق صباح كل يوم أردد كلمات لا تفهم بصوت ليس كصوتي، لا أستطيع إخبارهم بما فعلته، فهم لا يستطيعون الدخول في ذلك العالم وأمور الجن والتحضير، فبدأت البحث عن طريقة للتخلص بها مما أنا فيه، وما أدركته هو أننى قد حضرت قرين أخي وليس روحه، فالروح تذهب لمن خلقها عند الموت، تصبح سجينة الوقت حتى ينقضي وتقوم الساعة.

أما من يقف الآن أمامي فهو القرين الذي حضرته وعجزت عن صرفه. ففتحت الكتاب مجددًا ربما أجد حلا للأمر، لتقع عيني على التحذير الذي لم أقرأه:

"وجب التنبيه على وجود الوسيط الروحاني حتى تتم عمليه التحضير دون أذى"

حبي لأخي قد وصل بي حد الجنون والضياع.

اسمي حسين ولست مؤلفا للروايات، حتى إنني كنت أعزف دائما عن قراءة القصص، والأوراق التي بين يديكم الآن ما هي إلا قصتي.

أصبحت أبلغ من العمر عشرين عامًا، أي أنه قد مر عامان على ما أنا فيه، أكتب لكم من داخل مشفى الأمراض العقلية.

أمي أيضا مريضة، وقد وضعت في العناية المشددة منذ خمسة شهور،

يزورني أبي دائما ولكنه قد انقطع عن الزيارة فجأة منذ شهرين،

أشعر بالكثير من الخوف، فذاك القرين يظهر لي دائما ويضحك مرددًا: ألا ترغب في إحضار روح أمك أيضا؟ ويختفي، فلا أرى إلا دماءً متناثرة، تلك التي أراها الآن تنهمر من أعينكم وتغطي وجوهكم، ألا تشعرون بها؟!

***

- يا بسملة في إيه يا بنتي بسم الله الرحمن الرحيم يا بسملة اصحي، هات مياه يا محمد وتعال فوّق بنتك.

- بالراحة يا أمل، دا كابوس، هتفوق دلوقتي.

لحظات هي التي سبقت استفاقتي ولكنى قد رأيت فيهم الكثير، وكأني ساقطة في الوحل أو أن أناسًا بلا رؤوس يطاردونني، وبعض الحيوانات المفترسة التي تقترب لتمزيقي.

- بالراحة بس، إنتي شرقانة، سمي الله واشربي.

- هو إيه اللي حصل يا بابا؟

- ما حصلش حاجة صحيتي على كابوس.

- إنتي مش قولتي لي داخلة تنامي؟ إيه اللي جابك في أوضة المكتب؟ وإيه قصة الرعب اللي جنبك دي، هو فيه دكتورة نفسية تفضل تصحى كل يوم على كوابيس وما تنامش غير بمهدآت؟؟ ارحمينا وارحمي نفسك، مش محتاجين شغلك ده اللي هيحولك مجنونة.

- أنا كويسة يا ماما ومش مجنونة، أنا بس كنت بقرأ قصة وكان فيها حاجات مرعبة ونمت فجأة مش قضية يعنى، نغير الموضوع طيب، أنا جعانة على فكرة.

حيلة الجوع تلك لم تكن إلا لرغبتي في إخراج أمي من الغرفة لأمنع تدخلها وإفشالها لخطتي ورغبتي في السفر، فكان عليَّ سؤال أبى بمفرده:

- حضرتك ما جاوبتنيش على موضوع السفر يا بابا.

- أنا موافق يا بسملة لأني مؤمن بقضية الناس دي وضرورة مساعدتهم وواثق إنك هتخلي بالك من نفسك، بس اقنعي مامتك.

- بتصعب الموضوع صح؟ بترفض بطريقة حلوة علشان متأكد إنها مش هتوافق.

- أنا فعلا مش موافقة

كان صوت أمي هو الرد القاطع لما نناقشه، وكعادة الغرب لا حديث وقت تناول الطعام، فلكل شيء وقته، وسيؤجل النقاش في القضية.

- ماما ممكن نناقش الموضوع بالراحة؟

- مش هتسافري يا بسملة.

- ما أسافرش ليه؟ أنا مش لوحدي، أنا مع زمايلي والناس اللي رايحن لهم محتاجين مساعدتنا، محتاجين نكون جنبهم يا أمي أومال إحنا دكاترة ازاي!

- أهو إنتي قولتي محتاجين مساعدة وعلاج من الأمراض اللي ملياهم بحكم عيشتهم في الصحراء والحبوب والحياة اللي عايشينها، إنتي بقى كدكتورة نفسية هتعرفى تعالجيهم إزاي؟ ها هتقولي لهم معلش واستحملوا وخدوا أمور الدنيا ببساطة؟

- طب اعتبرني مسافرة رحلة.

- من إمتى وانتي بتروحي مكان لوحدك؟

- ماما أنا اتربيت وعشت في هولندا، ليه محسساني إني من مجتمع رجعي؟؟

- ما اسمهوش مجتمع رجعي، اسمه مجتمع محافظ، وحتى لو ما اتربيتيش في بلدك بس كان لازم تتربى بطريقة شبه مجتمعنا الحقيقي، وأنا عانيت علشان أتعلم دا وأعلمهولك.

- والله أنت لو كنت اتجوزت وعشت في الصعيد كانت هتتفاهم معايا أكتر وتسيبنى أسافر، أوروبا إيه بقى اللي قضيتوا فيها أكتر من نص عمركم، عملت فيها إيه خلتها كدا!

- ولا حاجة

- ولا حاجة، وبتضحك يا بابا؟؟

حسنًا، عليَّ المزاح لأستطيع إقناعها أو لأدفعها لقتلي:

- طب ما هو إنتي هتسيبيني أسافر يا أمل ولا أهرب وأعمل لك فضيحة والناس تقول بنتهم هربت ليه؟

- مش هتسافري يا بسملة، انتهى النقاش.

أمي حيث تأخذ القرارات تصبح نافذة، وليحدث تعديل بها كان عليَّ الصلاة ليلًا ونهارًا، والبكاء لنحو أسبوع لأجعلها تتراجع عن ذلك القرار، أنا حتى أخشى أن أسألها عن أغراضي التي عليَّ أخذها في سفري حتى لا تصدمني بالعودة مرة أخرى في موافقتها وأُمنع من السفر، لذلك عليَّ الاستعداد في صمت، وعلى رفاقي تحمل ما ستقوله لهم من تعليمات وكأني طفلة، ولم أبلغ من العمر الرابعة والعشرين.

***

الفصل الثاني

"الحب بطبيعته اكتشاف كامن بداخلنا، يظهر مع ظهور الشخص الصحيح الذي يستطيع تحريك مشاعرنا المدفونة، معادلة صعبة ومعقدة، بحاجة لسنوات لفهمها، معادلة تحوي كلمات مختلفة ما بين إنسان ضائع يعيش حياة مؤلمة يمتلك بداخله رغبة في العيش، يحقك تلك النتيجة عندما يجد نصفه المناسب."

أما عن منطق ذاك الحب هو أن بعض الابتسامات والكلمات قد تغير الحياة في نظر العاشقين لتصل بهم لمرحلة قد تجعل أحدهما هو سبب رغبة الآخر في العيش فقط، وكأنه انتصاره الوحيد في تلك الحياة، كأنه رغبته الوحيدة في الخلود والبقاء، كأنه نور العتمة التي أصابت دنياه في الماضي، البعض يجهل نوره إلى أن يأتي من يحرك المصباح نحوه فيصنع له الحياة،

كقول: أنا هنا الليلة فقط بسببك كونك كل أسبابي، وذاك هو أهم ما في الأمر.

الأمر غريب بعض الشيء، المرة الأولى التي أسافر فيها بمفردي وأجهل إن كان بإمكاني الاعتياد على من يرافقونني في تلك الرحلة، فأنا لا أعرف إلا حاتم، ومنذ عملي في المشفى وهو

لا يشعرني بأن الأمر غريب، أن تعمل طبيبة نفسية في مكان غير مشافي وعيادات الأمراض العقلية، فيسعى لأن يخرجني من وحدتي وانطوائي عن الناس، بأن يمرر لي الكثير من الحالات معللا أنهم لن يشفوا بالعلاج إن لم أساعدهم في تحسين حالتهم النفسية أولا.

نحن هنا منذ يومين، قد كان من الصعب على أمي أن تتركني، وكنت في قمة الخجل وهي تذكرني بأن لا أنسى تمشيط شعري وغسل أسناني والنوم مبكرا، رغبت في الصراخ " أمي أنا لست طفلة" وهؤلاء التسعة لا أعرف منهم إلا حاتم فتوقفي عن إحراجي، ومع مرور الوقت قد كان جاسر صديق حاتم وزوجته رنا يحاولون التقرب مني بسؤالي عن العيش خارج مصر وغير ذلك من الأمور، أراه يتحدث عن زوجته بطريقة جميلة، يذكر أنه رآها تكبر أمام عينيه منذ أن كانوا في الثانوية إلى انتهاء الجامعة، وأنها وبرغم من كونها عروسًا لم يمر على زواجها إلا عامين، لم ترفض تربية أخته الصغيرة البالغة من العمر سبعة سنوات بعد أن فقدت أبويها ولم يبق لها غيره، وقد رأت فيها عوض الله عن كونها لا تنجب، لذلك أراه يداعبها كثيرًا ويناديها بأمي ويتدلل كطفلها ويذكر أنها أهم عنده من أي شيء آخر حتى لو كان طفلًا يناديه أبى، سمعته يقول إن كان الطفل قطعة من الأب فهي جزء أكبر، فقد خلقت من ضلعي.

نحن هنا منذ فترة ملقيين في الصحراء، ليست صحراء بالمعنى المتعارف عليه، بها بعض البيوت، ولكنها لا تطاق، فدول إفريقيا الوسطى دولًا حبيسة، لا بحار ولا منافذ.

سمعت أن هناك الكثير من الزرع في أماكن أخرى بحكم الحرارة الشديدة وهطول الأمطار إلا أنى لم أر أي شيء إلا جبالًا وصحراءَ وبيوتًا بنيت بشكل غريب، وأناسًا محرم علينا الاقتراب منهم، وأطفالًا في حالة سيئة للغاية ولكنهم يجيدون حمل السلاح.

وما لاحظته أيضا هو انزعاج حاتم الشديد وهو يحدث رفاقه بأنهم لم يتركوا ذويهم ويخاطروا ليأتوا هنا هكذا ويمنعهم البدو من الاقتراب من الناس، وأن عليهم الخروج لعلاج المرضى فذاك هو ما رافقوه من أجله.

اليوم الثالث، الرابع، الخامس، أيام الأسبوع جميعها تمر، لا شيء جديد إلا أنى ازداد اقترابا من الرفاق، لا شيء يستحق أن أذكره لكم، فقط أبحث عن أشياء تجعلني أكسر مللي المستمر، فأقرأ في مذكرات حاتم وقد أدركت منها أنه جاء بنا إلى هنا لأن فتاة ما كانت تظهر إليه في أحلامه وكأنها تخاطب بروحها روحَه، وأخبرته أنها بحاجه إليه وإلى بعض الأطباء، أراه أكثرنا توترًا كأنه يترقب حدوث شيء، فقد دون في بعض الصفحات اسم فتاه تدعى دارين وكتب بجانبه "ضحى"

حتى إن جاسر قد بدأ في اصطحاب حاتم لأكثر من مرة إلى غرفة وحدهم ويتعالى صوتهم، وفي الأخير أجد الشباب يتدخلون وأسمع جملة :

"هتخسر إيه لو استنينا شويه يا جاسر، حاتم أكيد يعنى مش عاجبه الوضع دا، وإحنا صدقنا القصة من البداية، وأكيد القصة مش خيال يعنى، ولازم نكمل معاه"

-جاسر اسمعني بس، أكيد أنا ما ضيعتش سنتين من عمري مستني فرصة علشان آجى هنا أدور على وهم.

-معاك إثبات لكل اللي أنت بتقوله دا؟ إحنا بقالنا أسبوعين هنا ما ظهرتش ليه؟ ما شفناش حد ليه؟؟

-هتظهر، أنا متأكد بس شوية وقت، ضحى في مشكلة، أكيد في حاجة منعاها من إنها تيجي، هي بس بمجرد ما تسمع إن في فريق طبي جه من مصر هتعرف إن أنا، أكيد هتيجي هي بس ما تعرفش إننا وصلنا .

-ما تعرفش إيه؟ أنت شايف من كتر البيوت اللي هنا يعنى مش هيكون الخبر وصلها؟ وبعدين حتى لو جت هتعرفها إزاي!؟، وأنت حتى ما شفتهاش ولا مرة في عمرك، هتفضل تسأل كل ست تجيلنا؟ دا لو حد جه أصلا، إنتي الآنسة دارين؟!

-لا مش هسأل، هعرفها من صوتها، وهحس بيها، أنا متأكد آه ما كنتش بعرف أجمع ملامحها بس أنا عارف صوتها كويس يعني

-إيه عرفك إنها مش كذابة، أو اللي إحنا فيه دا مش ورطة، أنت شايف الناس هنا عاملين إزاي، إحنا ممكن نتقتل هنا ولا نتباع أعضاء، ليه لا؟ اللي خلاهم يبيعوا بناتهم بالفلوس للرجالة.

-بس أنا متأكد إنها موجودة وهتظهر، هي قالت لي حتى في وقت بعدنا وحتى لو مش قادرة أوصل لك روحها هتبقى معايا وتوصلني بيها .

-لا أنت إتجنيت رسمي على فكرة.

-فاضل مكان واحد وأنا هخرج أدور فيه .

-مكان إيه؟ ما تقولش إنك هتخرج تدور عند بنات الليل .

قد كانت دقائق هي التي مرت، والجميع صامت، ينظر لبعضه قبل أن يدق الباب ليزداد التوتر بيننا. فالمرة الأولى تلك التي يدق فيها أحدهم الباب منذ أن أتينا إلى هنا، فحتى الصبي الذي يعمل لدينا ويحضر لنا الأغراض ويصحب أحد الشباب عند خروجه من المنزل قد اشترط أن يغادرنا مع أذان المغرب.

نظر جاسر نحونا وكانت النظرة كفيلة أن تخبر زوجته بأن تصحبني واخته للداخل، وتوجه ليفتح الباب لتظهر فتاة في مقتبل العشرينيات، يظهر على ملامحها الإرهاق والتعب والتوتر الشديد، وكادت أن تفقد القدرة على التحكم في نطق الكلام

-أنا محتاجة طبيب أو طبيبة نساء من فضلكم، أمي هتموت.

ليجيبها جاسر: بالراحة بس ثواني خدي نفسك

-أنا مش محتاجة آخد حاجة، أنتم مش أطباء؟ ممكن تساعدوا أمي؟ أنا مستعدة أديكم أموال بالقدر الذي تريدونه، أكيد بينكم طبيب للنساء.

-لو حتى بيننا دكتور نساء مين أصلا في المكان اللي إحنا فيه دا هيسمح لراجل إنه يكشف على ست منكم؟

- بس إحنا بيننا دكتورة على فكرة، وممكن تقوم بالمهمة دي.

قد نطقتُ الكلمة دون أن أفكر في ردة فعل جاسر وأنا أورط زوجته.

دقائق فقط حتى أحضرنا الأغراض ورافقتنا الفتاة التي لم تفصح حتى عن اسمها أو عن معلومات حول مرض أمها، وطوال الطريق وحاتم وجاسر يلتفتون يمينًا ويسارًا وكأن كلا منهم لا يصدق الفتاة، فلماذا في هذا الوقت المتأخر بالذات تأتي لتأخذنا؟ ولماذا أصرت على مرافقة حاتم لنا فقد تجهزتُ للخروج مع جاسر وزوجته فأشارت نحوه وقالت إنها بحاجة لذلك الطبيب أيضا، ونظرتها الغريبة له كأنها تتوسل لأن يرافقنا، لنجد أنفسنا أمام بيت كبير، والفتاة تخبرنا بأن علينا الدخول من الباب الخلفي وعلى أحدنا الوقوف بالخارج ليراقب المكان، فتركنا حاتم وتوجهنا للداخل في حجرة في الطابق السفلي.

وظلت الفتاة تمسك بيد أمها التي تعرضت لعملية إجهاض وتنظر نحو شرفة يظهر بخارجها حاتم، لننتهي من الأمر ونعود إلى حيث أتينا بعد أن حصلنا على الكثير من النقود مقارنة بحال هذه البلاد التي لا يستطيع أهلها دفع أجر باهظ للأطباء مقابل العلاج، هم يداوون مرضاهم بالخرفات حتى لا ينفقون.

في اليوم التالي ونحن نتناول الإفطار ذكر الرفاق أن الفتاة التي أتت بالأمس تمتلك بعض الملامح ليست لفتيات وسط إفريقيا فبشرتها ليست بالدرجة الكبيرة من السمار، وملامحها تشبه كثيرا فتيات المغرب العربي، أكاد أجزم أنها من أصول مغربية أو جزائرية، ولكن مجيئها قد زاد الأمر سوءًا، فحال

حاتم قد تبدل، أصبح شاردا طوال الوقت وكأنه نسي من أتى ليبحث عنها وبدأ عقله يبدلها بتلك الفتاة أو أنه يتخيل أنها هي، ذاك ما ظننته، فنحن هنا نبحث عن فتاة أحبها دون أن يراها، فقد كانت تراوده في أحلامه لنحو عام وأخبرته بأنهم إن لم تقتلهم الأمراض هنا، يقتلون هم أنفسهم من القهر.

***

الفصل الثالث

وكأنه يقسم على أنه وإن فرض علينا الفراق يوما سأظل آخر شيء يرغب في رؤيته قبل أن يرحل ويترك الدنيا، يعلم أنه لا صدف بعد هذه المرة ستجمعنا، البعض يظن أن الحياة لا تتوقف برحيل أحدهم، نتحدث بسذاجة غريبة بأن كثرة الأيام التي ستمر والزمان وما سنلقاه في الغياب سيجعلنا ننسى، وإن كان الأمر كذلك والحياة تستمر فلماذا نبكي عند رؤية صورة من تركنا ورحل، لماذا نكره المرور بالطرقات التي جمعتنا من قبل حتى لا نوجع قلوبنا؟

حقا لا نموت ببعدهم، لا نموت حتى عند موتهم، لا نموت بقول كلمة هنا النهاية، ستكمل بمفردك وأنا الذي اعتدت على وجودي، على صوتي، وأنا الذي في بعض الأحيان قد تراني في وجوه جميع العابرين، وأنا الذي أحببتني لدرجة أنك بت تتحدث بكلماتي المعتادة التي تلازمني، الآن سأتركك وأرحل.

أظن وإن كانت قلوبنا حجر فإنها لن تتحمل ذاك النوع من الفراق، ستبقى الأجساد على قيد الحياة في حين أن الروح ستكون مهلكة للغاية، للحد الذي لا يستوعبه أي من الأشخاص في الكون، فالقلب الذي نحمله سيبرد للدرجة القصوى التي تجعلنا نحيا بلا حياة حقيقية.

وأما عن أسباب البعد، فتبًا لها هي التي قتلت القلوب الحالمة بالحياة،

وأما عن قلبي الذي رأى الكون من خلال عينيه فقد قُتِلَ، وكأن سيفًا باردًا تلذذ بذبح أضحيته التي كانت أقصى أمانيها عند الموت أن تذبح بسيف حاد لتموت سريعًا وتتخلص من ذاك الألم.

فحتى في مظهرنا القوي للغاية والشجاعة التي نحن عليها في ظل الفراق ما هي إلا طلاء مذهب لإحدى الأنتيكات التي قد امتلأت بالتراب منذ أن أهملها صاحبها، أو منذ أن فارقها ورحل ...

أظن أنها لحظة الخذلان الأصعب، أذبح الآن بفعل الصدفة، أو ربما أنا الآن أستفيق من كبوتي وأكذوبة الحب التي يدعيها.

اليوم هو الثلاثاء "الثلاثاء العظيم" كما يسميه الكثيرون سخرية واستهزاءً بما يلاقونه فيه.

اليوم الأول الذي أخطو فيه إلى إحدى مقاهي وسط البلد، لا أعرف الكثير عن القاهرة، قد قضيت عمري مغتربة ولم أعد إلا من ثلاث سنوات، وبالنسبة لأمي، هي فترة قليلة تجعلها تخشى على صغيرتها الخروج والمرور وسط الزحام فهي لا تنسى تجربة سفري بمفردي وعودتي وأنا أحمل نوعًا جديدًا من الكوابيس وصراخ الليل واسم دارين الذي لازمني،

دعونا نتحدث عن الشيء الأهم وهو أن هذه الخروجة قد كانت للقاء أحد منتجي السينما، لأنني قد أردت أن أعرض عليه إحدى قصصي، فقد ظننت أنها تصلح لتكون فيلما سينمائيا، وكان برفقتي إحدى صديقاتي القدامى، التقينا في هولندا، كانت تدرس الإخراج المسرحي وقتها.

ومنذ اللحظة الأولى التي جلست فيها معهم وأنا ينتابني التحفظ في الحديث، حتى في التبسم، حقا أكره الالتقاء بالغرباء بشدة، ولكن اليوم الوضع مختلف كليًا، هنا حيث ضجيج حديث الناس والطرقات الممتلئة وسماء القاهرة المملوءة بالنجوم التي ستسقط فوقي بعد دقائق.

الآن سيقع على مسامعي وقع الصاعقة القاتلة حقيقة قصه حبي والتي ما هي إلا أكذوبة.

- دكتور فريد طبعًا حضرتك عارف إن بسملة ملهاش أي تجارب في موضوع كتابة السيناريو والقصص والكلام ده، وحتى يعنى أول رواية ليها مش عارفة تكملها من الخوف وردة فعل الناس.

"تبسمتُ ابتسامة خفيفة لرانيا وكأني أطلب منها أن تتوقف عن الحديث"

- لا تخاف ليه؟ هي سمعت إن منتجين السينما بيموتوا الناس ولا بياكلوهم؟ أنا هشوف القصة وبإذن الله تكون كويسة، وبعدين الناس بيبان عليها، وأنا واثق إن الشكل البشوش دا بيملك قلم محترم.

"بداخلي شعور بالامتنان لما يقوله، ويهاتفه عقلي بالشكر، ولكن ما زلت لا أستطيع النطق".

بس هي تشد حيلها في الرواية علشان يبقى فيلم ورواية مع بعض لأن الواحد بيفرح لما بيشوف أقلام شبابية متميزة، وأوعدك أرشح لك دار نشر كويسة.

- أنا معايا دار النشر، هنشر مع شريف الشامي، بس الرواية تجهز.

- وإنتي وصلتي للشامي ودار النشر بتاعته إزاي؟

- أنا وشريف صحاب من فترة.

- بسملة، دكتور فريد وأستاذ شريف معرفة وصحاب جدًا.

- شريف ما يعرفش إني هقابل حضرتك، أو إني هعرض سيناريو أو أي حاجة من دي، هو ما بعتنيش لحضرتك ما كنتش أعرف إنكم معرفة،

أنا هستأذن لأني ما قصدتش فعلًا أستغل علاقاته بالناس.

- استني بس، أنا عارف إنه ما بعتكيش وإنك جاية مع رانيا، وإن كل دا

صدفة وإنه ما يعرفش، لأن شريف مش بيحب الوسايط، وبرغم صغره في السن وإني أكبر منه بحوالي ثلاث عشرة سنة، إلا إنه شاطر في المجال ويستحق اللي هو ودار النشر فيه، بس الغريب إني كنت عنده أنا والأولاد من أسبوع نبارك له على الفرح علشان مقدرناش نحضره، كنا في سفرية استغرقت ثمانية شهور بسبب دراسة الأولاد، وأنا معتاد من شريف على

إنه يناقشني وياخد رأيي في الأقلام اللي بتنشر معاه، وما جابليش سيرة حد جديد، يمكن الجواز نساه، أو إنه اتعلم ما يتكلمش في أمور الشغل في البيت بحكم الوضع الجديد.

- جواز مين؟! شريف!

- في إيه يا بسملة، جواز الشامي يا بنتي.

لألتفت نحو رانيا بعد قولها ذلك وكأني أتوسل لها أن تبتسم وتقول لي نحن نمزح.

- اللي هو إزاي؟؟

- بسملة في إيه؟

-أنا بس عايزة أفهم إزاي يا رانيا كان بيبارك له على فرحه، فرح إيه وإزاي؟

ثمانية شهور، يعنى من قبل ما أعرف شريف بشهر واحد !!

ما بعد ذلك يتجسد في أنني قد طرحت أرضًا.

الفصل الرابع

الأشباه في الوجوه كثيرة، كثيرًا ما يتردد على مسامعي قول أحدهم بأنني أشبه هذه أو ربما تلك.

شبهني سائق السيارة ذات يوم بأم كلثوم، معللًا الأمر بأن لي خدودًا وردية قد ذكرته بدفء صوتها، لم أعر تشبيهه أي اهتمام، فقد كفتني ابتسامته التي أوحت لي بظنه أنه بدأ يومه بشيء جميل.

شبهني آخر بحنان ترك، قائلًا إنني أبتسم مثلما تبتسم، أنا حتى لا أدري كيف تكون ابتسامتها، وما نوع الابتسامة التي أمتلكها، وقد كنت حين يناديني مدرسو مدرستي بابنة المديرة، كوني أشبه ابنتها الكبرى، مما جعلني ذات شأن بين رفاقي.

الآن مع اقتراب المنتصف، لا أدرى لماذا أكرر كلمة المنتصف كثيرًا، فربما هي مفتاح اللغز، المنتصف من العمر أو من الأيام، ربما من الساعات.

أظن أنني قد امتلكت من الشبه أمرًا جديدًا، الشبه في روحها، أو ربما أنا جسد ميت تسكنه تلك الروح، فدائمًا ما يراودني في أحلامي أننا نتسارع، وتحتل روحها جسدي لتكمل هي القصة.

أرغب في إيصال تلك الكلمات لأكبر قدر ممكن من الأشخاص، ولكن لا أعرف الطريق المؤدي لذلك، أخشى التعرض للفشل فهي ليست المرة الأولى التي أكتب فيها وأغلق درج مكتبي على تلك الورقات الممتلئة بقصص أشخاص لا يعيشون إلا في خيالي.

أما هذه المرة، فالقصة بحاجة لأن تظهر للوجود، وأتمنى مجيء الفرصة لذلك.

أعلم أن الجميع يتعجب من حالة التعافي السريعة التي أنا عليها الآن بعد صدمتي في قصة حبي الأولى، ربما لأنني قد أردت الانتقام بصورة مختلفة، وألا أبقى مصابة بعلة ألم الخذلان، أو لأن هناك أمورًا أخرى لا يعلمها أحد تخفى داخل جدران غرفتي، أمورًا تتمثل في ألم شديد، كمشهد أم تفتح باب غرفة طفلتها وتجد الأنوار مطفأة، وهي تعلم خشية صغيرتها من الظلام، تراها تضع الغطاء على وجهها للمرة الأولى، فمنذ متى وابنتها تفعل ذلك؟ فخشيت أن ترفع الغطاء حتى لا ترى دموع صغيرتها، فتحدثت قائلة:

"أي صغيرتي، الأمر ليس هين ولكن لا بكاء على التاركين برغبتهم، صانعي الأعذار والأكاذيب قبل حتى البدء في علاقتهم، هم كالأموات عزيزتي، لا ركوع عند توديعهم، كالأعداء لن يحرك بكائك فيهم ساكنًا".

وقد أشعلت النور وأغلقت الباب وخرجت، لا أستطيع الخروج من مخبئي وإكمال بكائي دون أن يراني أحد حتى يغلبني

النوم، وللحقيقة أنا لا أبكي على أنني قد كنت لعبة في يد أحدهم أو أنني قد عانيت من أكذوبة مسماة الحب.

أنا أبكي على حقيقة أنه لا قلوب تتسع للأنقياء الموفين بعهدهم، لذلك دائما يسقطون فريسة في الأخير.

أتذكر أنني قد خرجت يومها من المقهى هائمة نحو الطريق، أبكي بشدة، ماذا لو ذهبت إليه وسألته عن أكذوبته؟

ما المبرر لتلك الفعلة؟

ماذا عن السكوت؟ أظنه هو الحل الجيد، وكأنه لم يكن يعني لي شيئًا من البداية....

البداية! ذاك حال عقلي الباطن الذي لا يتوقف عن تذكر الأشياء، فربما حقًا لم أحفظ تاريخًا مر في حياتي إلا التواريخ التي ربطتني به فقط، كيوم الإثنين السابع من إبريل ٢٠١٥ فقد كنت أقضي يومي في دار للأيتام، وشعرت وقتها بحمى قد أصابتني لما قمت به من حركات كثيرة ورش الأطفال للمياه عليَّ بمسدساتهم، وبعدها تعرضي لشمس شديدة وأنا انتظر سيارة الأجرة، وتملأ ثيابي السوداءَ الأتربةُ، لو رأتني أمي هكذا لقتلتني، فهي دائما ما تذكر أنني لا أصلح لارتداء الفساتين كبقية البنات، وأنها لا تصلح لي، حتى إنني لم أعدل من وضعية شعري كثيرًا، فقد اكتفيت برفعه (بتوكة) لأعلى، وتركت بعض الخصلات، لا أعلم لماذا لم يكن لدي الصبر لرفعها أيضا، لا أعلم لما لم أستخدم سيارتي منذ بداية اليوم، لأجد نفسى في الأخير في إحدى كافيهات المهندسين، وقد أوشك الوقت على

الرابعة عصرًا والحمى تتزايد والحرارة تنتشر في جسدي، لأجده أمامي يطلب مني الابتعاد ليستطيع حمل أغراضه.

كيف لي ألا ألاحظ أن أحدهما قد كان يجلس هنا وترك مفتاح سيارته وعلبه السجائر وولاعة فوقها وبجانبهم حقيبة صغيرة لليد على الطاولة.

تركته يأخذهم دون أن أتفوه بكلمة أو أقدم له أي اعتذار عما حدث.

وبعد مرور ثلاث ساعات قد قضيتهم في النوم منذ أن وضعت رأسي فوق يدي منتظرة مجيء القهوة فنمت ولم توقظني حتى زحمة المكان ولا أصوات الموسيقى، ليمر الوقت وأستفيق مذعورة وأنظر في وجوه الجميع كأني قد كنت أحلم بكابوس ما أو أتذكر شيئا قد حدث معي منذ فترة فظلت خيالاته تلاحقني حتى غفوت.

وقفت ثوانٍ لأحاول التقاط أنفاسي وكان ينظر نحوي، وحين أدركت أنه مجرد كابوس، وهدأ عقلي عن ترديد مقولة (دارين قد قتلت)،

فجلست مجددًا ونظرت نحوه، كان ما يزال ينظر لي فأدرت وجهي وطلبت من النادل كوب مياه قبل أن أقوم بفرد شعري ولمه بطريقة أكثر هندمة مرة أخرى وأحمل حقيبتي لأجد نفسي أقف أمامه وأعتذر عما حدث، وأنني لم أدرك أن المكان كان لأحدهم وأنه قد كان بإمكانه أن يخبرني برغبته في المكان فكنت سأحمل حقيبتي وأرحل بدلًا من حمله لأغراضه والجلوس في مكان آخر، لأجده يبتسم ويخبرني بأنه قد رغب من البداية في

أن يسألني إن كنت لا أمانع الجلوس سويًا لأنه يحب الجلوس في ذلك المكان كثيرا، ولكنه قد خشي من ردة فعلى، لأجده بعد دقائق من الحديث يعرض علي للمرة الثانية أو الثالثة أن أجلس ولا أبقى واقفة. فأخبرته بأنه لا داعي، أنا سوف أرحل، وللحقيقة يزداد الكلام ولم تأت بعد اللحظة التي سأرحل فيها.

- طب اقعدي شوية نتكلم.

- المفروض أمشي لأن الوقت اتأخر.

- كنتي بتحلمي بكابوس؟

- إيه دا! نعم؟!

- كان باين على ملامحك جدًا وإنتي نايمة إنك بتحلمي بحاجة غريبة، تعابير وشك وحركة شفايفك كأنك بتقولي حاجة، وجبينك كان عرقان.

- أنت كنت بتراقبني؟!

- لحظة بس، أنا ما قولتش كدا علشان تتضايقي، أنا بس من لحظة ما شفتك حسيت إني أعرفك، أو إنك شبه حد أعرفه، علشان كدا فضلت متابعك مش أكتر واستغربت لما لقيتك طلعتي ورقة وقلم وبعدها نمتي.

- كنت عايزة أكتب حاجة.

- بتحبي الكتابة ولا كنتي هتكتبي طلبات أو ما شابه ذلك؟

- شوية، يعنى بحاول إني أوصل، بس فوبيا الشهرة ملازماني.

- ومين قال لك إن الناس اللي في المجال دا مشهورين ونجوم وكدا، والكاميرات وراهم في كل مكان ولقاءات صحفية وتلفزيون؟

- مش دل اللي أقصده، أنا أقصد عقدة الرفض للي كتباه.

- جربتي قبل كدا تنشري؟

- للحقيقة لا، بس المرة دي بكتب حاجة بيتهيأ لي إنها تستحق، على الأقل علشان ما أمتش في يوم زي صاحبة الحكاية من غير ما أكون سايبة أثر أو حاجة تدل على إني كنت موجودة في الدنيا دي، حتى لو كانت كتابتي الأولى هي الأخيرة، علشان لو إتحطيت تحت التراب أو إتسبت في الصحراء مستنية أي حيوان ياكل الجثة، ما أبقاش نسيًا منسيًّا.

- إيه الخيال الواسع دا!؟

على العموم يا ستي دا الكارت بتاعي، ممكن تحتاجيه في حاجة ويمكن تكون دي الفرصة.

- مش فاهمة!

- أنا شريف شامي، صاحب دار نشر وممكن أساعدك، وما تخافيش مش هنصب عليكي، وبعدين ما هو الكابوس دا أكيد وراه قصة مش هيِّنَة يعنى، هستناكي تكلميني.

***

الفصل الخامس

أطلت النظر في عينيها فخجلت وزادت حمرة وجهها ونظرت للأرض وتمتمت

"سلامًا على قلبٍ قد أخفى هواه منتظرًا أن يدق باب الحب ليلقاه"

فمحت بقولها سنوات حياتي العجاف دونها.

كانت تلك هي الرسالة الأخيرة التي دونها حاتم في مذكراته قبل أن ادق عليه الباب كعادتي وأطلب منه أن يعطيها لي لأقرأ الجديد الذى كتبه،

ليبتسم لي ابتسامة غريبة بعض الشيء، وكأن رفيقي يريد طرح سؤال ما أو ربما أكثر، ليست تلك هي القضية، بل إن نظرته تقول عليكِ أن تجيبيني بأنني على صواب وما أظنه هو الصحيح.

هو يرغب أن يطمئن ليس أكثر:

- بسملة، البنت اللي جات إمبارح هي ضحى، صح؟!

نفس نبره الصوت، نظرتها ليا كمان.

- حاتم محدش يعرفها غيرك، أنت بس اللي سمعت صوتها، أنت اللي بتكلمها من سنتين، بس اللي مستغرباه أنت إزاي حبيت واحدة عمرك ما شفتها؟! يعنى إزاي علقتك بيها كدا وكل اللي بينكم كان تخاطر أرواح،

أنا سمعتكم يوم الخناقة واللي أنت كاتبه..

- يمكن علشان روحي اللي حبتها، "ربما أرواحنا معًا وإن بعدت بيننا المسافات". ضحى الحلم اللي كنت بدور عليه، الست اللي حسستني إن ليا قيمة.

- هو أنا ينفع أسألك إزاي مش بتمانع إني أقرأ كلامك عنها وقصتكم؟ مش المفروض إن كل دا يفضل سر في حياتك، برغم إني مستغربة موضوع الأرواح دا وكان أسهل وأوفر لنا إنك كنت جيت لي العيادة وقولت لي يا دكتورة بسملة أنا بعاني من بعض الهواجس، بدل ما جبتني هنا واتصدمت بإنها لا بعثة طبية لمساعدة الناس ولا حاجة، وإن الواقع إن الدكتور العظيم عنده هواجس في دماغه، وصحابه صدقوه وورطوني معاهم، وحتى يعني في هواجسك مرفوض.

- قصدك يعنى علشان رفضتني أكتر من مرة وإني كاتب ردودها على كل مرة أسألها فيها لو قدرت أوصل لها وإني عايزها جنبي طول عمري؟

- مش بالظبط دا اللي أقصده..

- بسملة أنا واثق إن لو الظروف كانت مختلفة كنا أكيد هنبقى مع بعض، لو إنها كانت في مصر، لو إنها كانت في أي مكان غير هنا.

- طب أنت ناوي تعمل إيه؟

- مش عارف، بس أكيد هدور على البنت دي، أنا حاسس إنها ضحى، أنا بس هستنى الوقت المناسب علشان أخرج أدور عليها من غير ما أسبب مشاكل للناس اللي معانا، كفاية إنهم وافقوا إننا نيجي هنا مع بعض، من غيرهم ما كنتش هعرف أطلب قرار سفر على إننا بعثة طبية.

- ما عرفتنيش ليه الحكاية قبل ما تخرجني من مصر وسبتني أقرر هاجي ولا لا، أنا مسافرة على إني طالعة أعمل خدمة للإنسانية، مش أساعد سيادتك في إنك تدور على جوليت يا سي روميو.

- كنت محتاج وجودك جنبي، إنتي أقرب حد ليا من واحنا أطفال، حتى لما سافرتي تكملي دراسة برة فضلتي طفلتي الصغيرة، كنت محتاج تقويني كل ما أيأس واستسلم وخفت ما تجيش.

- آه، وإيه المقابل اللي هحصل عليه حضرتك، هتضمن لى إن الجثة بعد ما تتفضى وتتباع أعضاء هيبعتوها على مصر علشان أهلي يدفنوها؟؟

- إيه يا بنتي السكر دا، إنتي عندك شك ١٪ إني ممكن أسمح لأي حاجة وحشة إنها تحصل لك؟؟

- لا طبعا، أنا متأكدة ١٠٠٪ إنهم لو سألوا مين هيندبح الأول هتقول لهم ابدأوا بيها.

- واطي أنا للدرجة دي ها؟!. بس ما تضحكيش، أنا في إيه ولا إيه وإنتي عمالة تضحكي، وبعدين ابقي قصي شعرك دا اللي عمالين نلاقيه في الأكل لحد ما قرفتينا وساكتين ومش عايزين نقول.

- شعري! تصدق أنا غلطانة إن قلبي عليكم وبطبخ لكم..

- جاتك القرف على مكرونتك المعجنة اللي بتعمليها.

- هقتلك يا حاتم.

- كنت محتاج أتكلم يا بسملة والكلام معاكي بيحسسني إن الدنيا بسيطة، وإني مش محتاج أبرر أو أتعب نفسي في شرح حاجة، ومش بسكت وأقول إيه لازمة كلامي لأني عارف إنك سند ليا طول الوقت.

- عد الجمايل، شغالة لك شيف وكمان بقوم بدور الماما وبحتويك، وبكرة هبقى كاتبة مشهورة ولا هعبرك.

- بسملة إنتي حقيقي مصدقة اللي بتقوليه، أو إنك بتعرفي تكتبي!

- اخرص يا حاتم.

- لا بجد دا إنتي بتتملي غلط.

- إيه علاقة الإملاء بالكتابة والتأليف، الموضوع محتاج خيال وطموح مش أكتر، ويا ريت تبطل تحبطني.

- طب ما تزعليش، أوعدك لو لقيت ضحى هسيبك تكتبي قصتنا.

- قصتكم إيه دي اللي أكتبها، أنت متخيل إننا هنرجع ومش هنموت هنا؟

- بذمتك الجو مش شاعري؟ بيت كبير ضلمة ووسعاية كبيرة وسور عالي وبوابة مكسورة أي حد يفتحها في ثانية، وحتى القمر مش باين، ضلمة ضلمة يعني.

- دا جو مرعب حضرتك.

- يعني لو قتلتك دلوقتي واستخدمت جسدك في إني أحضر عليه روح ضحى وبعدها أدفنك هنا محدش هيحس.

- أنت بتهزر صح! حاتم أنت بتبص لي كدا ليه؟ والله العظيم هصوت لو ما بطلتش.

- بس خلاص أهي بقت الساعة عشرة وباقي ساعتين يا ضحى.

"كان حاتم يتمتم في صوت منخفض".

- ساعتين على إيه؟

- هخرج أروح للبيت اللي كنا فيه إمبارح.

- أنت بتهزر؟ الناس دي ما بتخليش حد غريب يقرب من بيوتها، دول ممكن يقتلوك.

- ما تقلقيش عليا هعرف آخد بالي كويس، أنا بس هستنى الشباب يناموا علشان ما أورطش حد معايا زي ما قولت لك، وأتمنى لسانك ما ينطقش بكلمة لحد.

قد طال الحديث بيننا وكانت المرة الأولى منذ المجيء إلى هنا التي أجد حاتم فيها يبتسم، فكلما ابتعدنا عن الجميع وجلسنا بمفردنا باتت أمورنا أفضل بكثير.

الوقت يمر ويقترب موعد خروجه وتتزايد ضربات قلبي، خوفي عليه، لا أريد أن أظهر له ذلك حتى لا أشعره بالتوتر، أتمنى أن يصل لما يريده، فتلك الفتاة لا تعني لي شيئا بقدر ما يعنيني من أمر عودتي بصديقي الوحيد سالمًا دون أن يصيبه أي شيء.

الفصل السادس

بعض الأشخاص تخجل الألسنة أن تحدثهم، وكيف لها أن تحدثهم وقد ظن القلب أنهم وجدوا فقط لتخاطبهم الأرواح؟

البعض نشعر معه بالحياة وكأننا نمتلك الدنيا وما عليها، البعض عالمه الصغير بمثابة الكون لنا، البعض يكفينا حديثه حتى وإن كان مجرد همس، فبإمكانه أن يصنع ضجيج السعادة بداخلنا، وعند صمته، حتى إن تحدثت الدنيا ومن عليها فإننا نشعر بالسكون والهدوء.

البعض هذا هو ذاك الذي تخرج أرواحنا لتخاطب روحه، هو جسد آخر قد خرجت أجسادنا لتسكنه، الجسد الفاني سيرحل، أما الروح الباقية التي تسكن السماء هي تلك التي تخاطبها روحي.

الروح حديث ممتزج بالمحبة لا يعرف ألوان الحقد أو الكره، هي تلك العيون التي ترى الجميل فينا، الجميل فقط، لا شيء سواه.

تلك هي نظرة القلب والعقل معا مجتمعة في صورة تتمثل في رموز البقاء بعيدا عن الأجساد الفانية.

"حديثهما قد كان بالروح ليبقى ما بقوا وما فنوا"

فروحي هي من تخاطب روحك الآن.

مر اليوم الخامس منذ أن التقيته، لم أستطع أن أحدثه، فقط أحاول أن أتذكر متى رأيته قبل هذه المرة، لأن وجهه مألوف للغاية بالنسبة لي،

ربما هو مجرد وهم في رأسي، أو اعتقاد خاطئ مثلما اعتقد هو أننا قد التقينا من قبل.

وأتمنى لو أنني أنسى شكلي وقتها، وابتسامتي البلهاء وهو يحدثني، والتفاتي أكثر من مرة له وأنا أخرج من الكافيه، وابتسامته لي وكأنه يحدث نفسه: (ماذا أصاب هذه الفتاة؟)

أين تركت الكارت الخاص به؟، كيف له أن يكون قد شغل عقلي بهذه الطريقة؟

أنا قد أضعت الكارت..

أنا الآن في ورطة حقيقة، فإن ماتت تلك الفتاة فإنني سأسجن لا محالة،

هي لم تخطئ، وأنا لم أر الإشارة، وحتى وإن أخبرت الضابط بأنني قد كنت في حالة نفسية سيئة وكنت أبكي ولم أرها وهي تعبر الطريق فإن ذلك لن يغفر لي.

- يا آنسة لو سمحتي

- أيوه

"لا أستطيع حتى النطق أو الوقوف على قدمي، أخشى أن تخبرني بأن الفتاة قد أصابها شيء"

- المدام كانت حامل وللأسف الخبطة كانت السبب في الإجهاض وما قدرناش إننا نعمل حاجة.

- يا نهار إسود، طب أنا هعمل إيه دلوقتي؟

- حضرتك اللي خبطتيها؟

- لا مش أنا، عربيتي ما عليهاش أي دم، أنا لقيتها واقعة في الشارع، تقريبا فيه حد خبطها وهرب وأنا حاولت أساعدها فجبتها المستشفى.

- على العموم أكيد النيابة هتحقق في الكاميرات اللي في الشارع، بس لازم ناخد بياناتها في الاستعلامات.

- بس أنا ما أعرفش اسمها.

- مش بتقولي إنك لقتيها في الشارع، ما كانش معاها أي حاجة في إيديها؟

- لا ما كانش، مش بكذب عليكي صدقيني.

- انا ما قولتش إن حضرتك بتكذبي، وتوترك دا هيفضحك وهيتعرف إنك اللي خبطتيها، فيا ريت تهدى لو عايزة تنقذي نفسك، هي حالتها مش خطر أجهضت بس مش مصابة بأي كسور، وساعة بالكتير وتفوق فامسكي نفسك يمكن تعرفي توصلي معاها لحل علشان متحبسكيش ولو إن يعنى مفيش أم بتسامح حد كان السبب في موت ضناها.

والله ما فاهمة إزاي ما كانش فيه حد في الشارع وشافك وإنتي بتخبطيها!!

شعرت من حديثها أن هناك حلا لما أنا فيه، بإمكاني التوسل إليها لتعفو عني، لم أكن في وعيي ولم أكن أرغب في حدوث ذلك، إنه فعلا الثلاثاء العظيم كما تسمونه.

***

مر أسبوع والثاني، ربما شهر وأنا ما زلت أفكر في ذلك اليوم الذي التقيته فيه، ابتسامته وحديثنا، فقط الشغل المتزايد في المشفى هو ما يجعلني انشغل لبعض الوقت عن ذاك الهوس الذي لازمني، حتى إن ابتعاد حاتم عني وسفره لأخيه في إنجلترا حتى يستطيع أن ينسى بعضًا مما مررنا به قد جعلني بحاجة للقاء ذلك الشخص مجددًا والحديث معه،

ربما لأنه سيكون السبب في أن يعرف الناس قصة دارين وما أصابها، فيخفف ذلك من إحساسي بقلة حيلتي وعجزي عن مساعدتها، وتتوقف هي عن إخافتي في أحلامي، فكم أتمنى أن أستيقظ ولو ليوم واحد دون أن أصرخ بـ "دارين، لا تذبحوها".

الأمر مخيف أكثر من روايات الرعب التي كنت أخشى الاقتراب منها وقراءتها.

بعد دقائق، وجدت نفسي أبحث عن الكارت وأسجل رقم هاتفه، وأرسل إليه على (الواتس آب) وقد أفزعتني السرعة

التي رد بها، لذلك عدت اتفحص ما كتبته للمرة العشرين، من شدة التوتر.

- مساء الخير. حضرتك ممكن تكون مش فاكرني بس إحنا اتقابلنا من فترة وكنت كلمت حضرتك عن روايتي وأديتني الكارت.

- مساء النور، أهلا وسهلا، هو فعلا مش فاكر حضرتك، وحتى بحاول أبص للصورة الشخصية علشان أفتكر.

(يا له من وغد، فأنا لا أُنسى بهذه السرعة)

- ولا يهمك يا فندم. آسفة لو كنت أزعجتك.

- لا استني، إنتي البنت اللي قابلتها في كافيه المهندسين؟!

- أيوه يا فندم.

- عرفتك من شعرك، تقريبا كنتي عملاه بنفس الطريقة اللي في الصورة، إنتي كنتي فين؟ وما كلمتينيش ليه كل ده؟!

- أنا آسفة بس الكارت ضاع ودورت عليه فلقيته مرمي وراء المكتب.

- صريحة أوي.

- نعم!

- لا مفيش، المهم إنك وصلتي في الآخر، حمدا لله على السلامة.

- الله يسلمك.

- هو إنتي اسمك إيه؟ لأننا لما اتقابلنا ما قولتيليش على اسمك، أو أنا ما سألتكيش.

- أنا بسملة.

- بسملة إزاي؟!

إنتي متأكدة إن الصورة المحطوطة دي صورتك، لإن للحقيقة أنا مش فاكرك، وقولت إنك البنت اللي كانت في الكافيه من تسريحة الشعر.

- أنا مش فاهمة حاجة!

- هو أنا ينفع أكلمك أسمع صوتك يعني علشان أتأكد من حاجة؟

-لا للأسف ما ينفعش وآسفة على إزعاج حضرتك.

ليتني قمت بمحو رقمه وقتها ونجوت بنفسي من تفكير وآلام قد سكنتني وأبت الرحيل.

الفصل السابع

"أن تجعل روحك تسكن قلب فتاة، جميعنا نفرح إن أحببنا".

ربما تلك العبارات هي الدليل على لعنة غرامه القاتلة، لذلك عليكم أن تتخيلوا معي ذلك المشهد، اعتدت أن أخجل حين تتحدث صديقاتي عن قصص حبهم، وأن أتلعثم كثيرًا وأنظر لهم قائلة إن الحياء من الدين، كيف لفتيات الأزقة أن يذكروا ذلك؟

ماذا؟ فتيات الأزقة؟ هل نطقتها؟ حسن، عليك الآن أن تستمع، في حارتي الجميلة يعدون كل من يسكن شارعي أنه ابن الأزقة، ونحن محرم علينا الزواج من خارج الشارع، عار على الغرباء أن يحبونا كوننا فتيات ليل، تلك هي الصفة الملتصقة بنا منذ عقود مضت، حتى وإن كنا في الواقع ندرس الدين ولا نخرج دون حجاب يغطي وجنتينا، إلا أننا الموسومون بعدم الشرف، نحمل الكنية المستدامة، فلهذا ألم أمي حين أجهضت جنينها الثاني لمجرد أنها فتاة، وأظن أن المرأة التي أعدمت اليوم ليست بمخطئة كونها وأدت طفلتها، نحن لا نستبشر خيرًا حين يقال لنا "قد وضعتها أنثى".

أتخيلك الآن أمامي ويدور بيننا هذا الحديث، ولكنني أحبك دارين ولا أخجل من أن أقول ذلك.

وأنا أيضا أحبك ولكن.....

- لا عليكِ، أنتِ قد أصبتيني بلعنة الغرام.

-الإصابة ليست لعنة، وإن أصبتك بلعنة الغرام فذلك لأنه "لا يصيبنا إلا ما كتب الله لنا"، ولربما كتبك الله لي وكتبني لك.

كنت أجهل أن أكثر ابتلاء قد يبتليني الله به هو ذاك الذي يصيب قلبي.

عندما استفقنا هذا الصباح وجدنا الطفل الذي يحضر لخدمتنا قد حمل رسالة من دارين ليوصلها إلى حاتم، لتبدأ معركة حب رفيقي العزيز.

لا تناول للطعام، فالجميع مشغول بالتفكير، والبعض يداعبه بأنها حقا جميلة، قد رأيناها حين أتت إلى هنا لتبحث عن إغاثة لأمها، وقد تأكدت لحاتم ظنونه بأنها هي بعد قراءته للخطاب.

فبعد أن كان يمر بالطرقات ليبحث عن الفتاة بات عليه التوجه مباشرة لمنزلها بدقة والسؤال عنها، فقد أصبح الآن يعرف أنها الفتاة التي جاء من أجلها، ولكن من الصعب عليه فعل ذلك، لربما قاموا بذبحه لاقترابه من بيوتهم ونسائهم، وعلى بسمله تولي المهمة كونه رفيقها، ولكن لماذا قلبي يؤلمني الآن؟ ألستُ سعيدة لأنه قد وجدها؟ لم التفكير بأننا سنفترق إن أتت هي إليه وكان عليَّ الاستعداد للمهمة والتوجه نحو ذاك

المنزل، وعلى حاتم حمايتي من بعيد لأطرق الباب وأسألهم عن حال السيدة المريضة وكيف هي الآن بعد مرور أيام على إجهاضها، وأنني قد أتيت للاطمئنان وقد سمح لي بالدخول للبيت ولكني لا أري أيًا من الاثنين، لا دارين ولا أمها، الأشخاص هنا ذوو بشرة سوداء قاتمة عن بشرة دارين، لا يجيدون التحدث بالعربية مثلها، وباتوا متعجبين حين سألتهم عن السيدة وكيف هي الآن،

- أي سيدة تلك التي تسألين عنها؟

"بالرغم من أن حديث صاحب المنزل قد كان بنبرة صوت هادئة، إلا أن جسدي قد أصابه الذعر، هو ليس والد دارين، أقسم على ذلك".

- أنا جيت حضرتك من أيام علشان كان فيه ست أجهضت جنينها.

- من أين أنتِ؟

- نعم؟ ... آه أنا مع زمايلي، فريق طبي جايين لمدة بسيطة كمساعدة لأهل المدينة.

- أسألك عن بلادك.

- أنا مصرية.

- لما أنتم هنا؟

- إحنا فريق طبي حضرتك للمساعدة.

- ولماذا ترسل مصر لنا الآن أطباء؟

- إحنا جينا كمتطوعين.

- توقفي عن النظر يمينًا ويسارًا والارتجاف، لن أقترب منكِ أنا أو غيري لأننا نعلم أنكم في حماية رئيس المدينة، فقط يحق لنا قتلكم إن خرقتم القوانين واقتربتم منا دون إذن أو دخلتم بيوتنا دون علمنا، وهذا ما فعلتيه من قبل.

- لا أنا ما كنتش أعرف إنه بيت حضرتك، أنا جيت مع بنت اسمها ضحى تقريبًا أو دارين علشان مامتها.

- من رافقك أيضًا إلى هنا؟

- أنا كنت لوحدي، ما كانش معايا حد، أنا والبنت دي بس.

- أتيتِ مع دارين ساكنة حي الأزقة إلى منزلي دون علم مني، فلقد ارتكبت جريمة استغلال بيت الأسياد دون علمهم، وتلك يعاقب عليها بالإعدام.

- أنا مش فاهمة، هي دارين مش من أصحاب البيت؟

- فتيات الأزقة لا يسكنون في الديار، هم يأتون برفقة أمهاتهم للعمل في بعض أيام الأسبوع فقط، وأنتِ تتحدثين عن أنها رافقتك إلى هنا.

- هي أكيد ما قصدتشِ بس كانت بتحاول إنقاذ والدتها.

- حسنا، عليكِ البقاء هنا حتى أعود.

تلك الدقائق التي خرج وتركني ذاك الغريب بمفردي فيها، غلقهم لباب الغرفة وكأنهم يسجنونني، قد مرت ومعها الكثير

من الأفكار السيئة، مثل إنني قد أذبح الآن أو أدفن حية هنا دون أن يدري أحد.

- أيتها الطبيبة

- نداؤه ذاك قد وقع على مسمعي وكأنه صوت منفذ الإعدام.

- نعم حضرتك.

- لدي فتاة من بين بناتي مصابة بمرض غريب منذ ثلاثة أعوام، فهي لا تنطق ولا تجيب على أي منا، لذلك إن استطعتِ إخراجها وإيجاد الدواء المناسب تركتك دون أن أقتلك، وقمت بمسامحة فتاة الأزقة وأمها.

- حاضر، بس هو أنا هفضل مسجونة هنا لحد ما بنت حضرتك تقدر ترجع طبيعية؟

-لا، بإمكانك الخروج، ولكن إن لم تفعليها وتأتي إلى هنا كل يوم حتى تشفى ابنتي لقتلتك أنتِ ورفاقك وهذا الشاب الواقف بالقرب من المنزل ينتظر خروجك، ولزادت الغنائم عندها من القتلة .

-وأنا موافقة.

-لم أسألك عن رأيك، عليكِ فقط فعل ذلك.

الفصل الثامن

التعريف غير الصحيح لنظريتي عن لقاء أرواحنا الهائمة هو أنني لم أقع في غرامه هو، بل أنني قد أحببت الروح التي تسكنه، فهي التي جعلتني أمتلئ بالشغف.

مازال الثلاثاء باقيًا رافضًا أن يمر، هناك الكثير من الأشياء التي تستدعي بكائي، لذلك أرغب في بعض الدقائق فقط لأنفجر في البكاء، ألا يحق لي حتى أن أبكي، أبكي لما آلم قلبي من كذب وخيانة، ولقتلي لطفل ربما كان حلم أمه الوحيد أن تلده ويأتي للحياة، أبكي لأنني بمفردي، دائما بمفردي، حتى وإن امتلأ الكون من حولي بالضوضاء والأنس فأنا وحيدة، وقد استطاع شريف أن يدفعني للشعور بذلك.

كنت ساذجة أبحث عن ونيس، ولم أفكر حتة إن كان صادق أم لا، ليصطدم حبي الأول برجل متزوج قام باللعب بمشاعري، بقي من الوقت ساعتان فقط ويؤذن للفجر وينتهي الثلاثاء، فاللهم مع اليوم الجديد لا يمر على حياتي ثلاثاء مشابه لذاك أبدًا. الفتاة لم تستفق بعد، ووالدي لم يصلا إليَّ، والأطباء والممرضات نظراتهم لي تقول إنهم يهددوني بقرب إخبارهم للشرطي الذي طلبوه للتحقيق في القضية على أنني من صدمتها.

- يا آنسة.

- آسفة جدًا، ما حسيتش إني نمت، عارفة إنه ما ينفعش أنام هنا.

- المريضة فاقت، ووالد حضرتك بيدور عليكي.

- فاقت إمتى؟! هما فين؟!

- ما هو مش من الطبيعي إنك تسيبيها وتنزلي تنامي في جنينة المستشفى.

- لا أنا كنت مستنية أهلي.

- أهلك معاها فوق وإحنا ما عرفناهاش إنها أجهضت، على حسب رغبة والدك.

- طب هو الظابط حقق معاها؟

- حاول، بس هي ما كانتش بترد، والدكتور قال له إنها في حالة صدمة.

أقترب الآن من باب غرفتها، أخشى كثيرًا ذاك اللقاء.

لربما تقف وتقتلني حين تعلم بالأمر، أو تزداد حالتها سوءًا.

- بسملة، تعالي يا حبيبتي.

- ماما أنا ما قصدتش والله العظيم، أنا كنت منهارة وبكي وهي عدت الطريق فجأة، أنا آسفة جدًا صدقيني ما قصدتش إني أأذيكي، آسفة لأني السبب في إنك فقدتي الجنين، سامحيني، واطلبي أي حاجة إنتي عايزاها، أنا تحت أمرك.

- بسملة، الدكتور قال إنها في حالة نفسية صعبة، (صدمة عصبية) والمؤشرات بتقول إن الصدمة دي سابقة للحادثة مش من أثر التصادم، ولو عايزة تردي لها جميل سكوتها فهيبقى عليكي إنك تخرجيها من الحالة اللي هي فيها يا دكتورة.

تعالي يا بسملة اقعدي جنبها وكلميها، يمكن تعرفي تخليها تنطق.

لوهلة قد شعرت بالخوف من الاستدارة نحوها والجلوس بجانب أبي، لطالما كنت أرتجف وأنا أطلب منها مسامحتي حتى دون النظر إليها، ليمد أبي يده ويجذبني، لأصطدم بواقع جديد، وكان قدري أن تلاحقني دارين في كل مكان أذهب إليه، دارين مجددًا على قيد الحياة، ملقاة على السرير أمامي بعد أن قتلت لأفقد أنا صوابي ووعيي معا.

الفصل التاسع

العنق، ذاك هو وضعي الآن، عند عنق الزجاجة، لا أستطيع فعل شيء، أقف أسيرة لثلاث قصص مختلفة، لثلاث فتيات، كل ما كنت أرغب فيه هو تدوين قصة دارين لتظهر للوجود، ولكن أي دارين فيهم، والآن أقع في قضية جديدة، وهي "ضحى"، ضحية المجتمع، ولكن أيضا أي ضحى فيهم، جميع تلك القصص هي ستار أتخفى خلفه من قصة لا تقل حزنا عنهم، وكأنني ألوم مجتمع هؤلاء الفتيات أولًا لأجد من يلقي باللوم في قضيتي على ذلك الكاذب.

لقد مر أسبوع، وما زال يرسل لي الرسائل ولا أجيب، فأنا لا أعرف سبب حديثه معي بتلك الطريقة وطلبه مني أن أثبت له أني "بسملة" أو أن ذاك هو اسمي الحقيقي، وأن عليَّ الرد على مكالماته ومقابلته، لم أعتقد أن الأمر بذلك التعقيد، كنت أبحث عن ناشر لنشر قصة ما لأجد نفسي الآن محور قصة جديدة، ضحيتها هي أنا.

لم أعتد الرد على الأرقام الغريبة التي لا تظهر لها أسماء عندي، ولكن أرسلت لي من ذلك الرقم الكثير من الرسائل بها "رجاء فلتجيبي"، لأصطدم بصوته، لا أعرف كيف حفظت صوته وهي المرة الاولى بعد اللقاء التي أسمع فيها ذاك الصوت.

- بسملة ممكن تسمعيني للآخر؟ أكيد حصل سوء تفاهم أنا بعتذر عليه، وكلامي كان لشيء يخصني، مش علشان شاكك في شخصك أو حاجة.

- أستاذ شريف حصل خير، أنا نسيت اللي حصل.

- على العموم أنا بكلمك دلوقتي علشان شغل، استنيتك تبعتي لي الرواية.

- أنا للحقيقة ما كنتش عارفة هبعتها إزاي بعد اللي حصل، بس الرواية أفكار في دماغي مش أكتر، لسه ما كتبتهاش علشان أبعتها لحضرتك.

- مش مهم، تقدري تاخدي وقتك لحد ما تنتهي منها، وأنا معاكي هساعدك تخلصيها.

-أنا ممتنة لحضرتك وهحاول أنهيها في أقرب فرصة ممكنة.

مكالمة قاتلة، السم الآن داخل العسل، ولكن لتدرك ذلك عليك التذوق .

هم يتصارعون، فذلك ليس نقاشًا، أظن أنها دقائق فقط وسيبدأ أحدهما بضرب الآخر، وأنا من وقعت في تلك المحنة، لا أعرف بماذا أجيب، فقط شعرت بالرغبة في الصراخ فيهم ليصمتوا.

- إنتي عايزانا نسكت إزاي، لازم كلنا نمشي دلوقتي من هنا، الموضوع بقى خطر، وسعت يا عم حاتم وما لهاش حل.

- لا يا جاسر ليها، أنا هروح وهعالج البنت وهساعد حاتم، بقربي من الناس دي هوصل لدارين، أو على الأقل لمامتها.

سكوت حاتم مش أنانية هو أكيد خايف عليا وعليكم، بس تفتكروا لو هربنا دلوقتي مش هنتمسك؟ ما إحنا لازم نواجه حقيقة إننا اتخدعنا من البداية، أو إن أنا بس اللي اتخدعت، وإننا مش فريق طبي مرسل من مصر، ولا حتى دا كان عرض لمتطوعين، وإنكم عملتوا كدا علشان تجيبوني معاكم، وإن حاكم المدينة بيحميكم مقابل الفلوس،

بتبص لي كدا ليه يا حاتم؟ لما تبقى عايز تخبي حاجة ما تبقاش تسجلها في مذكراتك اللي بتديها لي أقرأها، على العموم أنا حليت لك اللغز اللي بسببه جبتني هنا، وهو حلمك بإن دارين كانت بتقول لك "عليك إحضار طبيبة نفسية لتلتقي بشبيهة الاسم، فذاك هو مفتاح الوصول لي".

طبيبة نفسية وتاخدنا لبيت ناس علشان نعالج والدتها وبعدها نروح ندور عليها فنلاقي مريضة محتاجة للطبيبة، حتى الرسالة دي أنت كتبتها في المذكرات، بس عندي سؤال، لو مامتها ما كانتش تعبت في الوقت دا كنت هوصل للبنت المريضة دي إزاي؟

ولما كلكم خايفين دلوقتي جيتوا ليه؟ لأن من الواضح إن أنا بس اللي ما كنتش أعرف القصة، لأنك برضه كتبت في المذكرات: "على بسملة أن تظن أن صوتي العالي وتعنيفي للرفاق هو لأننا نتكاسل عن الخروج للقاء الناس، حتى تصدق أننا جئنا للتطوع".

استعجلت يا حاتم في كشف كل حاجة بس أنا هكمل علشان ألاقي شبيهة الاسم، مفتاح الوصول.

صباح اليوم الجديد، ظننت أن ما لقيته بالأمس سيجعلني أقضي الليل أفكر فيما سيلاقيني مع الصباح، ولكن قد غلبني النوم، لأستفيق على صوت رجل في الخارج يخبرهم بأن يوقظوا الطبيبة، فسيده ينتظرها في منزله، قد بات لي حارس شخصي أتى ليصحبني للعمل.

فقط القليل من الوقت قد قضيته في تبديل ثيابي وتناول الإفطار وعبور الشوارع لأصل لقصة لم أظن يومًا أن ألقاها.

"تعليمات السيد أن تخرجي الفتاة مما هي فيه خلال أسبوع، وألا يعرف أحد بالخارج من أهل المدينة ما تفعلينه هنا، وإن حكت لكِ شيئًا فعليكِ عدم النطق به، وإلا كانت نهايتك". تلك هي تنبيهات الحارس لي.

لأجد نفسي أمام غرفة مظلمة وبيد إحدى الخادمات مصباح، والحارس يرفع أحد الأخشاب الموضوعة في قاع الغرفة ليظهر سلم من الخشب، ويطلب مني النزول، لألتقي بالسيدة الصغيرة.

حسنا، أنا الآن إما أن أدفن في قبر ويغلق من فوقي فأموت، وإما أن أجد سردابا أصل منه إلى قصة خيالية.

الآن لا مفر.

الآن لا مفر من قبول النزول، النزول، نزول، لا يحق لي أن أستدير وأهرب من هذا المكان، لتظهر أمامي سيدة بثياب مهندمة وكأنها السيدة الأولى بالمنزل، وتحدثني بأن لا أخشى

شيئًا، فإن استطعت إعادة ابنتها لحياتها الطبيعية ستمنحني ما أريده.

- عليكِ ألا تقلقي، فهي لن تصيبك بأذى، وضعت في غرفة سرية، أسفل البيت حتى لا تجلب لنا المشاكل، لديها العديد من الأخوات البنات، وهي أكبرهم سنا، وإن تركت هكذا ستغادر البيت ويلحق بالأسرة العار، ويقل فرص أخواتها في إيجاد أزواج لهن، لا يمكنني مصاحبتك للأسفل فهي حتى لا ترغب في رؤية أي منا، كل ما يمكنني قوله لكِ إن ابنتي تسمى "دارين" وتبلغ من العمر نحو العشرين، سأحضر لكِ الثياب والطعام، وفش الأسفل ستجدين ما ترغبين ليكفيكِ لنحو أسبوع.

- هو أنا مش همشي من هنا؟!، أنا ممكن آجي كل يوم أقضي الوقت معاها وأرجع أروح لصحابي.

- السيد أمر بذلك، أنتم قد خالفتم أحد قوانين المدينة بالتسلل للمنزل دون إذن مع نيروز الخادمة وابنتها دارين خادمة ابنتي السيدة الصغيرة.

- ما أقدرش أفضل هنا، هيفكروني مت أو حصل لي حاجة، صدقيني هتحصل مشاكل.

- كل ما أستطيع فعله هو أن أرسل إلى رفاقك كل يوم مكتوبًا بخط يديكِ ليطمأنوا أنكِ بخير، يمكنكِ طرق الجرس الموضوع بالأسفل وحين تأتي لكِ الخادمة وتفتح الباب أخبريها بأنكِ تريدين السيدة نيروز وهي ستأتي لي.

- هل سألتقي بوالدة دارين الخادمة.

- من قال ذلك!

-مش اسمها نيروز.

-السيدة نيروز هي أنا، وخادمة السيدة تكني باسم سيدتها، وكأنها القرين الذي قدر له منذ ولادته خدمة سيده، لا يمكنها نطق اسمها الحقيقي إلا عند خروجها من المدينة، وهي قد خرجت منذ أسبوع للاحتفال بأعياد سكان الأزقة، وأتمنى ألا تعود هي وابنتها لأن ذلك سيعرضهم لعقاب السيد على جريمة اصطحابهم للأغراب دون إذنه وتسللهم للمنزل، وإن لم تعد في موعد انتهاء الحفلات سيرسل من يأتي بهم، ويعاقبون بالقتل على فرارهم، أريدك ألا تخافي من شيء ما دمتِ تسعين لشفاء ابنتي فحمايتك هي مسؤولية تقع على عاتقي.

الفصل العاشر

أن تدون مشاهد تعتريها بعض الأمور الخارجة عن مبادئك أمر صعب للغاية.

كثيرًا ما كنت أتحجج بأن ذلك مخالف، وأن من يقرأ لي لن يروقه ما سأدونه، ولكن كلما زاد رفضي للأمر زادت سخريتها مني وضحكاتها المرتفعة السخيفة وهي تردد: "ألم تعيشين مثلها ذات يوم؟ "

لا لم تكن أنا، قد كانت روحك اللعينة، أنا لا أفعل ذلك.

وبعد الكثير من الضربات المتكررة على رأسي والكثير من الصراخ، وطلبي بأن تتوقف ولا تنطق، وإصرارها على أن يرتفع صوتها وهي تردد كلمة "قد جعلك عاهرة يا صغيرة."

لا لست أنا، كانت أنتِ، روحك الآثمة.

أنا كنت أبتعد وأبتعد حتى ذلك اليوم، الشتاء كان مفزع، كل الأمور مفزعة، كلما أبعدت يده عني عاد ووضعها، ممرها على وجهي غير منسي، كلما صرخت أنا طالبة التحرر اقتربتِ أنتِ منه وسلمتي له جسدي، لست أنا من ارتمت في أحضانه،

من قبلت أن تلامس شفتاه جبينها أو أن يقترب أكثر، عليكِ العودة، عليكِ الخروج، فاللعنة على الأسماء المتشابهة، اللعنة كل اللعنة على ادعاءات الحب الكاذبة.

الأمر لا يتعلق بكوني أنثى لأنتصر، بقدر تعقله بكونه الشخص الو.....

لا لن أصمت، سأقولها، بكونه الشخص الوقح.

النساء ضعفاء للغاية كلما تعلق الأمر بمشاعرهم أو لامس الأمر رغبتها في الإحساس بأنها على قيد الحياة.

بلهاء المرأة دائما، تظن أنها لن تحيى بلا حب، عليكِ الخروج لأعود الطفلة الصغيرة التي لم يلوثها غرام كاذب.

دارين الآن تلاحقني إلى هنا، ذبحت في بلادها وتظهر الآن ملقاة على سرير في المشفى، وتلك المرة أنا من كان سيقتلها، الشبه بينهم مفزع، حتى إنني أتحرك نحوها كل بضعة دقائق لألمس جسدها، فهي ليست شبه دارين، الأشباح إن لامسناها تختفي، أما هي فباقية ساكنة في موضعها، ما قد تعجبت منه هو أنني حين أخبرتها أن الحادثة قد أفقدتها جنينها، ابتسمت ورددت الحمد لله، أنا كنت أخشى قتله حتى لا أعيش بذلك الذنب ولكن الله قد سمع دعائي وقدر لذاك الجنين الأمر الأفضل،

قولها بأنها لا تلومني على الحادث وأن ذلك قضاء الله، فهي راضية وترغب في شكري على الأمر، قد أفزعني ذلك، أحقا هي مريضة عقلية؟ أم ذلك الطفل هو ابن الخطيئة؟

صمتها المستمر سيدفعني للجنون، لأجدها ذات يوم تخبرني بأنها من طلبت من الطبيب أن يبقيها في المشفى، وهي لا تريد لنا المزيد من النفقات، لذلك ترغب في الرحيل.

فقط تريد القليل من الوقت لتفكر إلى أين سترحل، لأندفع بالسؤال عن أهلها، وأتلقى الصدمة الثانية التي فاقت صدمة الشبه بينها وبين دارين،

فالفتاة تسمى "ضحى"، صاعقة معرفتي لاسمها كانت كفيلة لأن تجعلني أظن بأنني في لعنة منذ قرأت القصة المرعبة وتحضير الأخ لروح أخيه.

الآن أنا أمام فتاة تحمل نفس الشكل ونفس الاسم، ولا عجب في أنني قد لاقيت ما شابه ذلك من صدفة.

بات الأمر غريبًا، فكلما انتهيت من عملي في المشفى حدثته حتى أصل إلى عيادتي، كلما حل تحدثنا وتاره تكون حجتي هي الرواية وما توصلت إليه وتارة أخرى تكون حجته هو تقديمه بعض النصائح لي لأعدل بعض الأشياء مما دونت، ولكن لحقيقة الأمر لم يكن ذاك الحديث يستغرق أكثر من بضع دقائق في بداية الحديث، ليبدأ في محادثتي عن أنني فتاة جميلة، وأنه يتعجب لأمر اسمي، وللحقيقة كنت أنا أيضا أبادله نفس شعور الإعجاب الذى حدثني عنه.

تمر الأيام وتعقبها الشهور، نحن قد أصبحنا رفاقًا وقد نسيت أمر الرواية، وبات الحديث عن أحداث يومنا، وعن أشياء أخرى لا داعي لذكرها، يعرفها الجميع، فهي تشبه بداية علاقات الارتباط.

ليخبرني بقضية اسمي، ولِمَ فزع عند معرفته للمرة الأولى، وأنه حين كان في مرحلة مراهقته قد غرم بفتاة تسمى "بسملة"، كانت هي هوس حياته غير المنتهي، لذلك ظن بأنني أحد يعرف ذلك وأراد اللعب معه بالاسم ليس أكثر، أو أنني رفيقة أحد أصدقائه المقربين وقد طلب مني المزاح معه مستخدمة الاسم.

مر ثلاثة شهور وقد تغير تعاملي معه، لم يكن هناك رجل في حياتي بإمكاني حديثه كل تلك الساعات من اليوم إلا حاتم.

ولقد كنت أفكر بحاتم طوال اليوم منذ تركني وسافر، أما الآن فأنا أهاتفه فقط حين يهاتفني، بات شريف هو يومي بكامله.

كلما مر يوم اقتربت منه أكثر حتى بدأت أغار من عمله، وأنه مشغول في كثير من الأحيان.

عليَّ تقدير وظيفته وأمور كثيرة نتجادل فيها، كلما غضبت من غيابه عنى وأغلقت الهاتف أقوم بلوم نفسي على ثورتي تلك، فهو لم يخبرني بأنه يكن لي أيًّا من المشاعر، فقط نحن مقربون من بعضنا البعض ليس أكثر.

بالطبع لدي صديق آخر ولكن ذلك ليس بصديق، حاتم لم يحدثني هكذا، حتى إن قلبي لم يكن يدق بنفس الطريقة كلما حدثته أو التقيته.

أخجل أن اسألها عن الأمر، من أب ذلك الجنين؟

ولماذا هي هنا بمفردها، وأين إثبات هويتها؟

لا أحد قد بحث عنها، لا أهل لها، فقط أخشى أن أخرج كلمة تؤذي مشاعرها، هل ذلك ابن خطيئة؟!

لا أظن، ملامحها لا تقول ذلك.

لكنتها في الحديث لا تقول إنها من القاهرة، أظنها من إحدى محافظات الريف، لن أدعها تذهب، ولم يكن أمامي حل إلا أن أطلب من أبى أن ترافقنا للمنزل لبضع أيام ليس أكثر، وأظن أن ما أخجل أبى وجعله يوافق، هو ابتسامتها وقولها له: (أنا طول فترة وجودي هشتغل والله، هساعد الست أمل في شغل البيت، أنا بس محتاجة مكان يسترني، لأني لو خرجت من هنا هبقى في الشارع.)

الفصل الحادي عشر

غريزة البقاء والرفعة، تلك التي قد تدفعنا حتى للتضحية ببناتنا إن استطعنا، التضحية بأقرب الأقربين.

اليوم الأول داخل تلك الحجرة والسيدة الصغيرة لا تريدني أن أقترب منها، فكلما اقتربت صرخت بقوة فتوقفت مكاني، أريد فقط أن أخبر الرفاق بما أنا عليه الآن، الجواب الأول: (أنا الآن أسيرة في بيت ذلك الرجل، الكثير من الحراس اليوم، مخالفة بيوم قدومنا لإنقاذ أم دارين، لا عليكم فأنا بخير، أردت فقط أن أوافي حاتم بعض المعلومات،

إن دارين الآن خارج المدينة، في مكان يعرف بشارع الأزقة، وإن لديهم عيد هناك، كما أن اسم دارين هو كنيتها وليس اسمها فذلك اسم السيدة التي تقوم هي بخدمتها، وأنها خارج المدينة تنادى باسمها الحقيقي، أظن أن ذلك الاسم هو ضحى، الآن قد عرفنا السر وراء مخاطرتها لك باسم ضحى تارة ودارين تارة أخرى، عليك فقط أن تنتظر مراسلتي، ربما أصل لطريق ذاك الشارع، تلك هي الطريقة الوحيدة لإيجاد هذه الفتاة.

أنتظر أن يحدثني لأعرف منه لماذا تغيَّب عني لنحو أسبوع؟ فقط يرسل لي بريدًا ليسأل عن حالي ويخبرني بأنه مشغول،

فكيف له أن يفعل بي ذلك؟ من سمح له وأعطاه الحق في إهمالي؟

لكن، تلك هي فرصته الأخيرة، فإن خلف وعده ولم يأت للقائي في مكان لقائنا للمرة الأولى، فأظن أنني لن أغفر له ذلك، أنتظر أن يهاتفني للخروج لألتقيه، وقد أوشك الوقت على الثانية ظهرًا، وموعد اللقاء عند الخامسة، فجاءت الرسالة: "سأنتظرك على باب الكافيه عند الخامسة، لا تتأخري فأنا أشتاق لكِ."

تبسمت لما قرأته وبدأت أتجهز للنزول، أفكر فيما أرتدي، كيف سيكون وضع شعري، عليَّ إسداله فذلك أجمل على البنات، ولكنه ذات مرة قد أخبرني أنه يحب الفتيات الذين يربطون شعرهم للأعلى، فذلك يجعلهم أكثر جاذبية.

حسنا، قد استغرق الأمر نحو ساعة ونصف من الترتيب لوضعي، فذلك لقائي الأول، "موعد الغرام الأول."

لن أخرج بسيارتي، لست بقدر جيد من خبرة القيادة، ولا أريد التقليل من جمالي وأنوثتي، ربما يصاب فستاني الجميل بشيء ما وأنا أقود، وكان ذلك من بين الأخطاء التي ارتكبتها في ذلك اليوم.

سائق السيارة يصطدم بسيارة أخرى، فينزل ليتشاجر وتصبح الخامسة والنصف، والأسوأ من ذلك هو نسياني لهاتفي بالمنزل، ربما ذلك هو البداية المبشرة، بدأ التشاؤم الآن.

السادسة وعشر دقائق كان موعد وصولي لأجده يسير نحو سيارته، فقد قرر الرحيل، فركضت نحوه مسرعة وناديته، فاستدار ونظر لي نظرة مخيفة وبدأ في الصراخ :

-ما إنتي لو محترمة الإنسان اللي جاية تقابيله كنتي جيتي في معادك، أنا مش عارف إيه أصلا اللي خلاني أضيع وقتي وأقعد أستناكي.

واستدار ليذهب، ولم أشعر بنفسي إلا وأنا أعتذر، ويصاحب اعتذاري تنهيدات بكاء.

"لاختبار عذرية قلوب الرجال عليكِ البكاء، فإن كنتِ أول من أحب بصدق وبكيتِ أمامه فستجدينه كطفل قد تغيرت ملامح وجهه لإحساسه بأنه قد أذنب، فدموع النساء دائما كالمطر، بعد كل هطول يترك الكثير من الأثر في قلب الحبيب، وإن لم يكن الأمر هكذا فلا عذرية لديه، فلستِ الأولى ولا حبه صادقًا، ولن يقيم عندها لدموعك وزنًا."

ولكن أيضًا هناك بعض الرجال الذين لا يصدقون دموع النساء، وإن بكت أمامه العمر كله.

الرجل حقًا لا يبكي امرأة تحبه، ولا يترك طفلته في وسط البحر ملقيا بها لأبعد حدود الغرق.

ولكني قد وجدته كالنوع الأول، وكأني أول من يختبر عذرية قلبه، بدأ في مسح دموعي وطلب مني أن أتوقف عن البكاء واعتذر عما حدث .

كيف أكون الأولى، ماذا عن الفتاة التي تحمل نفس اسمي وقد أخبرني عنها من قبل؟

نظر نحوي وأطال النظر في عيني، لم أشعر حتى متى أمسك يدي واحتضنها بذلك الشكل، ثم إنه قد اعترف في تلك اللحظة بما انتظرت أن يقوله:

-تعرفي يا بسملة أنا لو ما كنتش خايف من رد فعلك، أنا كنت أخدتك في حضني دلوقتي، ولا كان هيفرق معايا الناس ولا أي حاجة، لإنك مينفعش تبكي لأي سبب من الأسباب.

استمر في حديثه قائلًا بأنني لا أعرف ما أعنيه له، لأخبره أنا بأنه لا يعلم أيضا ما أكنه له، لينطق بكلمة "أحبك" التي وقعت على أذني وقع الصاعقة القاتلة، وليعيد قولها فتسقط هذه المرة على مسامعي وكأنها صاعقة الإنقاذ والإنعاش لقلبي الذي توقف عند سماعها أول مرة.

أنا الآن حبيبته ونوره الذي يسعى لإخفائه وحمايته، ذلك ما قاله لي.

الفصل الثاني عشر

أراك جميلًا كوصفهم لجمال يوسف، ولكنك فاقد لعفته، كل النساء في عينيك زوجات العزيز ويرودونك، تلك هي حجتك الملعونة، تأبى الاعتراف بأنك مصاب بحب الذات، تريد الجميع حولك كزير نساء، معللا الأمر برغبتهم فيك.

حسنا، فالأشخاص لا ينسون، فقط يقل تأثيرهم فينا إلى أن يصبحوا منعدمي الأثر في الأخير، ربما هذا ما أشعر به الآن نحوك.

منذ بقاء ضحى في منزلي وأنا لا أشعر بالوحدة، فهي تعاملني بلطف شديد، ليس بالطريقة التي ينبغي أن تعامل بها أمٌّ المرأةَ التي قتلت طفلها، ولربما قد أصابتها بإعاقة ما أو قتلتها أيضًا، لولا لطف الله بها.

لماذا بداخلها كل ذلك الرضا من ناحيتي، وكأني قد أسديت لها خدمة ما.

لأجدها ذات صباح تحضر لي الإفطار وتجلس بجانبي وتطلب مني أن أعلمها كيف تقرأ وتكتب، فلديها من تركتهم في

مكان ما وترغب في الاستعداد قبل العودة لأخذهم، لينتابني الفضول القاتل لمعرفة قصتها ومن ينتظرها ومن أين هي؟

لأبدأ الآن في قص حكاية الفتاة الأولى من فتيات الأزقة، ألا وهي "ضحى."

الشارع الذي تسكنه يعرف بالزقاق، لطالما فتح باب بيتها الصغير المهدم في أحد الأزقة الصغيرة في قرية فقيرة بريف مصر بمحافظه دمنهور،

حيث تعيش الفتاة البالغة من السن نحو اثنين وعشرين عاما، أي إنها تصغرني في العمر، ومع ذلك يظهر على ملامحها كما لو أنها أكبر مني بنحو عشرة أعوام إضافية، وكأن حقا ما نلقاه في حياتنا هو ما يحدد أعمارنا وليست الأيام التي عشناها .

هي اخت لست بنات، تكبرهم سنا، ولديها أخ ولد وحيد مصاب بأحد الأمراض السرطانية المزمنة.

والحقيقة أن المعاناة لم تكن لضحى وحدها، بل هي للإخوة البنات جميعًا، أب لا يستطيع أن يعمل لينفق على بيته الذى امتلأ بالصغار، فلا حل أمامه إلا تزويجهم، لتكون زيجة ضحى وهى في الحادية عشر من عمرها" إذًا لم يكن طفلها بفعل الخطيئة."

عام واحد وتلحقها أختها الأصغر سنا، وبعدها بسنوات قليلة أختان آخرتان، فكل من بلغت الحادية عشر من وجهة نظرهم فهي قد بلغت جسديًا وعقليًا وستتزوج.

لتضع ابنها الأول وهي تتحمل المعاناة من ذلك الشخص الخطأ الذي يخرجها للخدمة في البيوت لتحضر له الأموال ليشتري بها الحبوب وغيرها من أصناف المخدرات. بالنهار هي خادمة في بيوت أسياد المدينة وفي الليل خادمة لسكير مخمور يقوم بضربها، ويوميا ما يلقي عليها يمين الطلاق، ولكن العذر هو أنه لم يكن في وعيه لتستمر معه لنحو أربعة أعوام حتى يموت إثر جرعة زائدة من ذلك السم، لتعود ضحى لبيت أبيها الذي دبر لها زيجة أخرى، فأختها الأصغر منها قد طُلِّقَت، وهو لم يزوجهم في البداية ليعودوا إليه، فلكل منهما زوج جديد لا يختلف عن سابقه شيء، لتنجب في هذه المرة ولدين، وتلتقي بي وهي حامل في الطفل الثالث، ولكن تلك المرة قد رغب في أن يجعلها تعمل في اللا شرف، لا وصف لدي لما أخبرتني به غير ذلك،

فمن سكير إلى ديوث يرغب في تسريح زوجته، لذلك حملت أطفالها وتركتهم أمام بيت أبيها وفرت إلى هنا تبحث عن فرصة للعيش حتى تستطيع استعادة هؤلاء الاطفال، وكونها لا تجيد أي شيء إلا الخدمة في البيوت، وكون السادة لا يدخلون بيوتهم أشخاصًا غرباء، وهي من محافظة أخرى غير القاهرة، فلن يوافق أحد على توظيفها، لذلك بقيت لبضعة أيام في الشارع، ليقدر لها اللقاء بي.

الليل قد جاء والسيدة الصغيرة ما تزال تغني بصوت هادئ جميل للغاية، وحين لاحظت إنصاتي لها توقفت واستلقت على سريرها للنوم، ولكني قد لاحظت أنها مصابة بالحمى، وجسدها يرتجف، كما لو أنها ستفقد الوعي.

نحن الآن مغلق علينا، حتى إن صوت الجرس لم يسمعه أحد، فكان عليَّ التصرف حتى لا تقتلها حرارتها المرتفعة، فبدأت في عمل الكمادات للتقليل من حرارتها وغطيتها بكل ما وجدته يصلح في الغرفة ليكون غطاء، وهي كانت تشعر بما أفعله، ولكنها لا تستطيع أن تفتح عينيها، وكلما حاولت الابتعاد عنها أمسكت بيدي لتبقيني بجانبها.

فلقد تحولت من تلك الحالة والشعور الذي كَنَّتْهُ لي في الصباح إلى حالة وشعور آخر نحوي.

وبعد أن قضيت الليل أمسك يدها وقد غشاني النوم، استيقظت على صوتها وهي تطلب مني أن أستفيق.

جلست أمامي وتبسمت لتفسح لي المجال لأقص عليكم حياة فتاة الأزقة الثانية، فذلك هو صراع الحب والسلطة، فمن سينتصر؟

أخرجت السيدة الصغيرة صورة فتاة من تحت وسادتها، هي تلك الفتاة التي رأيتها من قبل، وقالت إنها ضحى، خادمتها وصديقتها الوحيدة.

قد سمعت حديثي مع أمها فعلمت أنني صديقة الطبيب الذي تحبه الخادمة، وأنها ترغب في أن يصل لضحى سريعًا ويأخذها معه إلى الديار، لربما يقدر لها البقاء بغير خطيئة أو يقدر لها العيش.

لم أكن أفهم ما تعنيه، ولكني أسرعت بإحضار ظرف وكتبت الرسالة الثانية لحاتم، وهي أن ضحى تمكث في شارع يعرف

بطريق فتيات الليل أو زقاق فتيات الليل، وليستطيع الوصول إلى هناك عليه المرور بالطريق المعاكس للجبل الذي سلكناه عند دخولنا للمدينة، ولم يتبق أمامه إلا نحو ستة أيام، لأن عيد هؤلاء الناس سينتهي، ووضعت الصورة ليتأكد من شكلها ويستطيع التعرف عليها، وطلبت منه ألا يتأخر هناك فأنا هنا لن أعرف شيئًا عنه ولن أستطيع إنقاذه.

وجلست أتمنى لو أن ذلك الظرف قد وصل إليه حقا، وأن خادم السيدة يقوم بتنفيذ وعدها لي.

ليظهر في رأس سؤال جديد، السيدة الصغيرة تتحدث! ذاك صوتها!

فلماذا أخبروني أنها فاقدة للنطق إثر صدمة عصبية قد تعرضت لها، وكيف لها أن تعرف بأمر حاتم وهي محبوسة هنا؟

لماذا دونت على جدران غرفتها أنها من الأزقة والأزقة منها؟ وإن كانت منهم فما الشيء الذي منع عائلتها من التوجه للاحتفال؟

تلك الأفكار قد بدت على ملامحي لأراها تخرج رسومات كثيرة لشخص واحد، نفس الشخص، وتسألني إن كنت أرغب في رؤية ضوء الشمس، فهززت لها رأسي وخرجت برفقتها من الغرفة من باب سري صغير، وقد لزم الأمر مني الركوع لأستطيع عبوره، لأجد نفسي بداخل جنينة يدخلها بعض ضوء الشمس.

السيد لم يترك طفلته محبوسه، لم يمنعها من رؤية النور، ذلك ما ظننته.

"دقائق فقط " قد أخبرتني أن أقف لدقائق، وبعدها سرت خلفها في سرداب ثم صعدت من حفرة لأجد نفسي أقف على باب غرفة أم دارين التي أتيت إليها من قبل، يوم الإجهاض، أنا الآن في الناحية الخلفية للمنزل.

-أظن أنكِ تفكرين في الفرار الآن؟

-لو كنت عايزة أمشي مش هقدر أعمل كده، إحنا تحت رحمة والدك، دي قوانين مدينتكم، للحقيقة يعنى أنا ما أعرفش إيه هي القوانين بس إحنا أضعف من إننا نواجهكم.

-لنعود حيث كنا وسأخبرك بكل شيء.

الفصل الثالث عشر

لينتصر الحب وإن كان بالدماء، لينتصر وإن مرت الكثير من السنوات على تلك المعركة، الحب الصادق هو جيشك لتواجه العالم أجمع، لتقاتل قبائل الجن وسرايا الجند البشري ليعلوا صوت الحق؟

حسنًا، فتلك هي الحكاية .

ما زلت أعيش معه قصة حبي الجميلة على أمل أن تكتمل، فلا عواقب كتلك التي واجهت دارين وحاتم، ولا قيود كتلك التي قيدت دارين السيدة وأبعدتها عن خالد، من هنا ألتقي بسر علاقة السيدة الصغيرة بحي العاهرات لنضع الفصول الأخيرة في حياتهم.

-أردت فقط قبل أن أحكي لكِ القصة أن أخبركِ بمعرفتي بقدومكم ذات يوم أنتِ ورفاقك، فذلك وعد دارين لي.

الطريق الذي أخرجتك منه قد حفرته دارين لتستطيع رؤيتي، منذ وضعت هنا هي الوحيدة التي لم تنسَ السيدة الصغيرة، فكانت تتردد على مخبئي كلما استطاعت ذلك، أردت

أن أرد لها ذلك الجميل، لذلك نطقت أمامك، فأنتِ بإمكانك إنقاذها، هذه الرسومات لحبيبي خالد، أعدك أن أجعل أمي تعيدك ورفاقك لبلادك في مقابل أخذكم دارين معكم دون أن يعرف أحد بذلك، كما أنكِ ستساعدينني في الوصول إلي حبيبي أيضا، عليكِ أيضا أن تعرفي أنه إن لم تساعديني فلن تخرجي من هنا لا انتِ ولا رفاقك، حتى وإن نجحتِ في مهمة شفائي كما أخبركِ أبي، هو فقط سيستغلكم وفي الأخير سيقتلكم، فما لا تدركينه هو أن أبي هو ذاته السيد زعيم المدينة الذي يحميكم بعد أن أرسلتم إليه الأموال مع الصبي دون أن تروه، لا أحد يمكنه تبديل رأي السيد في أي بيت إلا زوجته، لذلك تعد سلطة أمي أعلى من سلطة زعيم المدينة، ولن تمتنع عن مكافأتك إن خرجت لها كما كنت منذ عامين وتحدثت إليهم وعدت لحياتي الطبيعية.

-بس إنتي طبيعية، عملتي كل دا ليه؟ مخلياهم حابسينك هنا ليه؟

-عليك فقط أن تنتظري ليوم واحد، وعلى رفيقك أن يبحث عن دارين، فإن وجدها وهبتكم مخرجكم ووهبت نفسي الأمل ورددت لدارين جميل خدمتي ووفيت بوعدي لحبيبي خالد بأن أجعل صديقته في أمان، دارين ابنة لأم وأب جزائريين، حضروا مع الكثير من أبناء بلدتهم من أجل استخدام بلادنا للفرار في هجرة غير شرعية، ذلك ما وهمهم به تجار البشر، فيأتون بهم إلى هنا فيباع بعضهم عبيدا والبعض الآخر يعمل كخادم، والبعض يباع أعضائه، فقدر لها أن تولد في زقاق العاهرات،

حتى وإن لم ترتكب الرذيلة. فإن تزوجت ذات يوم فعليها قضاء ليلتها الأولى في أحضان سيد زوجها، ليدخل بها أولا، ليتم تأكيد تبعيتهم للسيد، كما أن أبناء السيد الكبار بإمكانهم استدعائها في أي وقت إن أرادوا، ذلك هو القانون، ولا يحق لسيد آخر الاقتراب منها، فمعروف من سيدها، وإن لم تتزوج لا يحق للسيد لمسها، فذلك طقس الزواج، لذلك الأمهات إما يجهضون أنفسهم، إن أخبرتهم العرافة أنهم سينجبون فتاة، وإما يقومون بقتل بناتهم قبل البلوغ، وينفذ عليهم حكم الإعدام فيما بعد لقتلهم بناتهم، ذلك الأمر شائع هنا، فلا سلاح ولا مفر أمامهم غير ذلك.

ومحرم على هؤلاء الفتيات الزواج من أبناء السادة، فقط لهم حق الاقتران بالشباب العبيد، فلا حق لهم في الاختيار ولا في الحب، أما عنها فقد صلت يوم الذكر، فرأته في أحلامها، فوقع صديقك في قدرها، أحبته كثيرًا، وتمنت لو أنها استطاعت يومًا الخروج من هنا والالتقاء به، وأنا سأجعل الحب ينتصر لمرتين في وقت واحد، فخالد ينتظرني منذ عامين، بقي فقط أسبوع على موعد اللقاء.

-لقاء من؟

-منذ ثلاثة أعوام، خرجت مع دارين لحضور أعيادهم في الأزقة.

-أي أعياد تلك؟

-سكان الأزقة يحتفلون بيوم هو عيد النجاة.

في السابق كان أطفال هؤلاء القوم يؤخذون ليلقوا في النيران بمجرد ولادتهم، لإلقاء الرعب في قلوب أهاليهم ودفعهم للاستمرار في الخضوع، ولأن الحاكم قد وجد أنهم يكبرون في السن وأنه بات من الصعب إحضار المزيد من العبيد الجدد، فأصدر قراره بمنع ذلك العقاب، فجعل العبيد من ذلك اليوم وجميع أيام الأسبوع كل عام عيدا لهم.

كان المكان أكثر سعادة، والحضور أكثر ذهولا بحضور ابنة الحاكم،

لألتقي بذلك الحب المنتظر، (ابنة الحاكم تقع في حب أحد العبيد.(

شاب يافع قوي قليل السمار تحمل ملامحه الكثير من البراءة، يدعى خالد.

"ليس عبدا" ذلك ما كان ينطقه دائمًا، هو سيد قلبي فكيف يكون عبدًا؟

لأجد نفسي أتسلل من البيت كل يوم والتقي به سرًا لنحو عام، وأقع في غرامه، ولكن لا مفر مما نحن عليه إلا بالفرار من هنا، تلك هي الطريقة لنكون لبعضنا البعض، فلن نكون دون ذلك.

اليوم التالي جاء وقد قضيت الليل أفكر كيف تخطط للفرار معه منذ عامين، كل تلك الفترة للتحضير، ولماذا هي سجينة هنا؟ هل قبض عليها قبل تنفيذ خطتهم؟

ليقطعني صوت فتح باب النفق المؤدي لسلالم الغرفة، وأسمع صوت الخادم يناديني ويطلب مني الصعود لملاقاته.

فمنحني ظرفًا قال إنه من أحد الرفاق، وذكرني أنه قد تبقى من مهلة الأسبوع يومان.

ليقع ما بالجواب على مسامعي وقع الصاعقة، فتلك كارثة، وأجد السيدة تبتسم وتحمد الله على ذلك .

-عزيزتي بسملة، أنا بحاجة إليكِ، وجدت دارين وعدت بها أمس، ولكن قد وقعت في الخطأ ولا أدرك كيف حدث الأمر، ما أتذكره أنني قد استيقظت ووجدتها في أحضاني، قد سلبتها أعز ما تملك ولا أعرف كيف لم أكن في وعيي، ولكن عليَّ تحمل المسؤولية، فقط أريدك بجانبي الآن، أنا لا أستطيع التفكير بدونك.

-حسنًا أيتها الطبيبة، الآن بإمكانك الخروج، وسأرافقك إلى أمي، لنخبرها أنني بخير، وبعد ذلك ستطلبين منها أن توفر لكِ ولرفاقك سيارة تعبر بكم الجبال وتبتعد لأبعد مكان ممكن عن هنا، لتقترب منكم من أي البلاد التي تستقلون منها الطائرة للوصول لبلادكم، شرط أن يصطحب صديقك دارين، فهي لم تكن لترافقه لو لم تربطه بشيء ما، فكان عليها أن توقعه في الخطيئة، وقد أصابت في اختيار اليوم، العرافون يقولون إن طوال هذا الشهر نساء بلدتنا يحملون من المرة الأولى، والآن صديقك سيعرف بحمل دارين منه ويخاطر من أجل طفله.

-لو ما كانش لقاها، لو ما كناش جينا، لو كان الشهر دا لسه قدامه وقت كتير، كنتوا هتعملوا إيه؟

-كنت سأجد العديد من الطرق لإبقائك هنا .

-أنا كنت هتقتل بعد ما يمر أسبوع.

-لا تخافي، لم أكن لأسمح بهذا، فأنتِ نجاة دارين الوحيدة وطريق وصولي لخالد.

والآن قد وجدت طريق الخروج، فلقد عانيت عامين لأستطيع ملاقاة حبيبي، وكان بإمكاني الانتظار لوقت أكثر.

ضحى تنتظر أن تجد سبيلا للقوة لتعود وتأخذ أبنائها وأنا لا يمكنني فعل شيء إلا وعدها بأنني سأحاول مهما حدث لأعوضها عما لاقته، فقصتها قد أنستني ذبح قلبي حين لقيتها للمرة الأولى، لماذا كل أحزان النساء تتعلق بالرجال؟ أليس من بينهم رجل رشيد؟ أم أننا أوراق تقذفنا رياحهم فنظل هائمين إلى أن نسقط ونداس أرضا؟ أم أننا من خلق من ضلعهم الأعوج فظننا أنه لا استقامة لنا إلا بهم؟

لسنا الأضعف، ولكننا دائمًا الأكثر احتياجًا.

تركت رانيا والمخرج وخرجت أركض في الطرقات وأنا أبكي، وأخذت سيارتي وكل ما يشغل تفكيري هو كيف له أن يكذب وكيف لي أن أهواه في سبعة أشهر، أهواه حد الموت والضياع والفقد، حد الشعور بالانكسار والخذلان، حد ترديدي "قد كنت أحبك، قد رأيت فيك الحياة، فلماذا كل هذا"؟

والله إنهم لسبع عجاف، قد ماتت فيهم كل الأشياء النابضة بالحياة بداخلي، فبت شبحا على قيد الحياة.

لا عجب في أن يخبره صديقه بما حدث وأن يستمر في اتصاله بي لأيام كثيرة ويطلب مني أن ألتقي به.

الأمر سيان إن أخبرته بأنه لا داعي للقاء أو التقيته، فما سنقوله هو أنه قد ظن نفسه محور الكون، أو أنه سيقول إنني أظن بأنني الضحية، كيف لي أن أظن هذا وقد وافقته من البداية على تلك العلاقة؟

صدقت أمي حين قالت: "مهما برع الصياد يبقى الخطأ من السمكة، فهي من فتحت له فمها "

كان ردي عليه بأن يمنحني نحو ثلاثة شهور، ليجد الجواب على ما حدث، "وعوده الزائفة وإيهامه لي بالحب."

الفصل الرابع عشر

النساء دائما ذووا سلطة إن حكموا القلوب، إن سكنوها حقا.

لذلك لا تخشَ على امرأة قد تحكمت في عقل وقلب رجل على حد سواء، ذلك ما تعلمته أنا من السيدة الكبرى.

قد بدأت الاحتفالات في المنزل بخروج ابنتهم للحياة مرة أخرى، هي الآن وسطهم، لا صراخ، لا محاولات لتهديدهم بقتل نفسها، ولا فرار من المنزل.

لأخرج من تلك المحنة لا أعرف إلى أين، فقد طلبت مني السيدة أن أحضر إليها بعد أسبوع لآخذ منها شيئًا ما، وعدتني بسيارة تصحبنا إلى أكثر الأماكن أمانا لنصل لديارنا.

لأجد نفسي في مأزق حمل دارين، خرافات هذه المدن صادقة، دارين الآن حامل من حاتم، وإن ظهر حملها للجميع سنقتل، وعلينا الانتظار لأسبوع لتخرجنا السيدة كما وعدتني.

رغبت في الاستراحة بعض الشيء لما لقيته خلال الأيام السابقة، لأجد دارين تتسلل ليلا وتشكرني، وتضعني أمام "القصة الثالثة."

فالسيدة أصبحت من بنات الرذيلة منذ أن أحبت خالد وحاولت الفرار ولم تستطع، فقامت بقص شعرها كالعبيد وارتدت الثياب العارية وخرجت في الطرقات، فجلبت بذلك العار لأبيها حين تشبهت بفتيات الرذيلة.

ليأتي اليوم المنتظر، فقد خطَّت خالد لاصطحابها لإحدى القرى في شمال البلاد وهناك سيعلن زواجه بها.

إلى أن جاء الموعد وقبض على خالد وتم ذبحه وتقطيعه أمام عين السيدة الصغيرة، لذلك قد أصيبت بصدمة وحتى لا تثير المشاكل قاموا بتقييدها لفترة من الوقت ثم وضعت في غرفة سرية، ولأن الأعراف هنا تقول إنه إن تواجدت الحبيبة في مكان موت حبيبها وماتت بطريقة مشابهة لطريقة موته فإن روحهم ستجتمع معا، الموعد يقترب ولكنها أرادت تأمين حياتي أولًا، فظلت توهم الجميع بفقدها النطق منذ عامين.

أرادت فقط أن تجعل الحب ينتصر ولو لمرة واحدة.

فكلما سنحت الفرصة استطعنا التسلل إلى حي الأزقة لتلتقي بخالد دون أن يرانا أحد.

حين أخبرتها أنني قد رأيت وجه شاب في حلمي وأن الحلم قد كرر لأكثر من مرة، أخبرتني بأن ذلك حب، ولتؤكد لي ذلك أقسمت بأن الحب يكمن في الأرواح فأن لم التقه ولو لمرة فقد كان مقدرًا لأرواحنا أن تقع في غرام بعضها، وأظنني قد وقعت في حبه نتيجة لما قالته لي.

بت أؤمن بذلك القدر الغريب، كلما التقيتها سرا، قد دفعتني لتصديق أنه سيأتي يوم ألتقي فيه بحاتم.

وكان طلب مجيء طبيبة نفسية إلى هنا مخطتها هي.

-يعني هي هتموت؟

-أريدها أن تنال ذلك في سلام، فروحها معذبة من دونه، وروحه أيضًا كذلك.

-عليكِ فقط إيصال جوابي لحاتم، لأنني سأذهب من هنا الآن حتى لا يبدأوا البحث عني، فأنا قد كتبت الخطة كلها.

-بتزعق لي ليه؟ مش من حق أي حد إنه يعلي صوته عليا، أنا حاولت أقاوم وأمنعها من إنها تمشي بس هي ضربتني ففقدت وعيي وما أعرفش عملت كدا ليه.

-بدل ما بتزعق لبسملة يا حاتم شوفها كتبت لك إيه في الرسالة.

قد مر أسبوع كما قالت دارين، الأسبوع الأصعب على بقائنا هنا، حتى جاءت ساعة الصفر، اللحظة التي ستصعد فيها السيدة الصغيرة للمكان الذي ذبح فيه حبيبها لتقوم بالانتحار.

عندها سنكون قد استطعنا ركوب السيارة التي وفرتها لنا أمها وتوجهنا حيث نريد، وتكون المدينة منشغلة بالكارثة التي ستحدث.

كيف استطعنا إقناع أمها بأن ابنتها بخير، وأن عليها حمايتي ورفاقي من أبيها وإخراجنا من هنا، وهي في الحقيقة تخطط لقتل نفسها.

لقد سارت وفق خرافات أهل بلدتها التي أصابت في جميع ما واجهنا، وكأن القدر قد صار وفق أهوائها.

الفصل الخامس عشر

نموت ويبقى الحب ساكنًا للأماكن، أو هائمًا ينتظرك أن تبحث عنه، فإن لم يأتك فعليك أنت إيجاده، وإن كانت الأبواب موصده فما المشكلة في طرقها، الحب شيء لا يملك عمرًا، هو حقيقة من حقائق الحتمية الكونية، لا مفر منه، وإن متنا يبقى في صورة إخلاص واشتياق، هو الواقع الوحيد الذي لا يعرف لونًا ولا شكلًا، ويجهل الأسماء واللغات، لا يعرف ما تعنيه كلمات غني وفقير، "الفقر الوحيد هنا يكمن في القلوب التي لا تعرف الحب."

كثيرًا ما كان ينتابني شعور غريب للغاية، كلما قرأت كلماته المدونة في تلك الصفحات، يصفها بأنها أجمل بنات الكون، لا مثيل لها، قد خلقت مما خلق منه الحور، ربما هي إحداهن، وحين نزلوا ليلا للأرض قد غفت بعض الشيء فصعدوا للسماء وتركوها، يصف حبه على أنه إصرار على الاستمرار والتحمل وتنفيذ الوعود، كونه قد قطعها على نفسه، فقد بنت هي على كلماته آمالًا وأحلامًا، لم تستطع أن تحيى ولو لثوانٍ منذ أن أحبته، دقات قلبها المتصارعة والأنفاس الأخيرة التي كانت

تلتقطها وهى تنظر في الاتجاه الذى يبعد عنها نحو سبع خطوات فقط، كانوا هم الفاصلين بينها وبين حبها.

أتذكر كل شيء كأنه يحدث الآن أمامي، دارين تذبح.

-أنت فاهم يعنى إيه نهرب من المكان دا وناخدها معانا؟ مدرك يا حاتم؟!

-أنا مش همشي وأسيب ابني، أنت فاهم؟

-ابنك، ابنك إيه؟؟ حد كان قال لك تغلط؟

-أنا ما غلطتش، ضحى مراتي وربنا شاهد.

-ممكن بس، كفاية من فضلكم كفاية خناق، لازم نخرج كلنا يا جاسر، وضحى معانا، هنوصل بيوتنا ومراتك وابنك معانا يا حاتم.

-وأنا مش مستعد أخاطر بمراتي وأختي.

-بس أنا هستنى مع حاتم ومش هسيبه.

-هتمشي يا بسملة معاهم، كفاية لحد كدا، أنا آسف إني بورطكم معايا.

-استنى يا حاتم، أنا معاك ومش هسيبك.

-هنمشي إمتى طيب؟

أظن أن خيبة الأمل التي قد أصابت حاتم لم تكن لتزول مهما قلنا جميعا بأننا سنكمل معه، وما كانت لتنتهي لو لم ينطق رفيقه المقرب ويسأل متى الرحيل، ذلك الحلم الذي

يراوده وكلما اقترب موعد جعله حقيقة، قد وجدت الأمر أصبح أكثر خيفة.

جميعنا قد أصابنا الخوف، وكأننا نستشعر حدوث شيء ما، نتمتم بالدعاء في سرنا على أن يخيب الله تلك الظنون السيئة.

-هنتحرك الساعة ٢

-وأنت مفكر إن هما أجدع مني وإني هسيبك؟ أنت أخويا وفداك أي حد في الدنيا، بس أختي ومراتي لا، لو حصل لهم حاجة أنا اللي هقتلك مش الناس اللي أنت هتاخد بنتهم وتهرب بيها.

أنا أسجل اللحظات قبل الأخيرة لي هنا، في ذلك المكان حيث ولد حبي سرا، كأنه خطيئة، لم أرد لذلك الحب الطاهر أن يصاب بتلك اللعنة، أنا فقط قد كنت عاجز عن أن أصرخ به لأسمع الكون أجمع، اللعنة على الخوف، فهو أشد الأمور قهرا للرجال.

لذلك لن يولد طفلي في الظلام مثلما ولد حب والديه، لا تستحق أن تبقى هكذا طوال عمرها، عليَّ أن أشعرها بالأمان مثلما أشعرتني هي بالحياة، حتى وإن كان الثمن هو قتلي لتبقى هي وطفلي على قيد الحياة، حياة النور.

-هنتحرك يا شباب ولازم نعرف إن عددنا مش قليل، إحنا عشرة ولما تنضم لنا دارين هنبقى حداشر.

-حاتم، يا حاتم، أنت يا ابني!

-أيوة يا بسملة

-أيوة يا بسملة! أنت فين بتفكر في إيه؟ دا وقت حد فينا عقله يروح منه في أي مكان؟ اصحى الله يخليك وافتكر إننا بعد اللي هنعمله دا هنتحول من فريق طبي لعصابة......

أيوة كدا اضحك وفهمنا إيه اللي هيحصل

-ضحى هتبقى على الجبل الساعة اثنين ونصف، لأن إحنا لما هنوصل هتبقى الساعة ثلاثة، فلازم هي تخرج من بيتها قبلنا، على الساعة واحدة، لأن لما هيشعروا بغيابها هيبدأوا يدوروا في المكان، وأكيد ها ييجوا هنا، فلازم يشوفونا موجودين .

-تفكير غلط، لأن إحنا لو فكرنا نخرج بعد خروج دارين هيبقى الوضع خطر، القرية كلها صاحية وبتدور عليها، مش هنعرف نتحرك.

-هنعرف يا جاسر، فيه شيء أهم من غيابها هيحصل في المكان .

"كان عقلي يقصد انتحار السيدة الصغيرة"

تحركنا قبل الموعد، فالقدر هو الذي يسوق لنا بعض الأفكار، ماذا لو كنا قد وصلنا في الأخير، أكان يروق للموت أن يأخذها دون أن يسمع صوتها أو أن يراها للمرة الاخيرة.

ثلاث ساعات وخمس دقائق قد مروا منذ خروجنا من تلك القرية ووقوفنا على الحافة المقابلة للجبل ننتظر دارين، ضربات قلبي تتسارع، أخشى أن يكون أصابها مكروه أو أنها لم

تستطع المجيء، لا أحد كان يشعر بتوتري فدموع حاتم المتلاحقة دون سبب جعلتنا فقط نتمنى مرور الثمانية دقائق الباقية لتدق الساعة الثانية ونصف لنرى دارين هنا.

حاتم يتمتم ب "لتسرعي يا ضحى، أين أنتِ حبيبتي"، والوقت كسنوات يوسف عليه السلام العجاف، لا ينتهون.

ليظهر طيف دارين يقترب وأرى حاتم للمرة الأولى التي يقفز فيها فرحا، ويناديها بصوت مرتفع يا ضحى، أراها تركض ولا تعير أي انتباه لسلامة الصغير الذي تحمله في جوفها، تركض كأنها طفلة وليست فتاة مثقلة أحشائها بطفل ما زال نطفة .

-وصلت يا جاسر، وصلت.

لم يكمل حاتم جملته إلا وقد كانت أصوات أقدام خيولهم قد أسرعت وحاوطت دارين، وقد خفضنا رؤوسنا بعض الشيء خشية أن يرونا، وهي لم تتوقف واستمرت في الركض، أي ركض يا دارين وأنتِ محاكمة بهم، تخشين حتى أن تهرب نظراتك نحونا فيعلموا أننا نختبئ هنا.

الآن دارين تحت رحمتهم، سيحكمون وينفذون الحكم، ذلك ما ظهر على ملامحنا جميعا، برغم نظرات حاتم التي كانت تطلب منا الشفقة على حبيبته، أن نفعل شيئًا لها، وإن لم يمسك به جاسر والبقية لخرج من مخبئه واندفع نحوها.

لحظات هي فقط كانت الفاصل بين دموع دارين المتساقطة طالبة منهم الرحمة وبين دمها السائل.

دارين واقفة ليأتي من خلفها أخوها ممسكا بسكينه ويذبحها..

صرخات أعيننا وصوت النباح المكتوم بداخلنا، صرخة حاتم التي قد منعت من أن تلاقي عنان السماء بفعل يد جاسر الموضوعة على فمه.

قتلت لأنها كانت تحب، ولكن ما ذنب الصغير، لماذا لم يدعوه يموت في سلام بداخل أمه، ما الداعي لشق بطنها وإخراجه ونثر دمه هو الآخر؟

ما الداعي لقتل حاتم مرتين في لحظة واحدة برؤيته كل هذا؟

ما الداعي لأن نبقى أحياء ما دامت دماؤنا بذلك الرخص؟

الفصل السادس عشر

كانت أكثر طرقي مشقة وإرهاقا لي هي تلك التي قد مررت بها وأنا عائدة لنفسي.

طريق واحد فقط ما رأيته هو ما أشعرني بالألم، أنا قد استدرت لأعود لي فوجدت الكثير والكثير من الدماء حين كنت أسير سابقا نحوك، ليس ذلك فقط، وجدت البعض من أشلائي ممزقة ملقاة في الطرقات.

الآن أنا ذلك الشبح الذي يطاردك لتنتهي، أنا تلك الدوشة التي ستصيبك بالصداع المزمن، لتحاول إيقافها فتدرك أنها ليست من الخارج، بل هي بداخلك، لتدق بيدك على رأسك وتطالب بوقفها فتظل ملازمة لك حتى الموت.

أنا الأوراق المقطعة، وغير ذلك أيضا، فعليك أن تدرك أن الروح المقتولة تظل هائمة ملعونة لتسكن الجميع، ولتستكين وتهدأ وتسكن قبرها تريد قربان، وأقسم بالله وتالله لن تجمع أشلائي إلا في الثواني التي تقطع بها أنت جسدك لأشلاء.

بلغت كل تلك الأحداث من حياتي وصولا لليوم نحو عام، وقد انقضت أيضا الثلاثة أشهر التي أمهلته إياها حتى نلتقي.

بعد عودتنا لمصر قرر حاتم السفر عند أخيه، والآن قد عاد فأردت صدمته بعد أن مكثت لأيام طويلة أعلم ضحى كيف تكتب وتقرأ وكيف يكون تمريض المرضى لأخذها تعمل ممرضة في المشفى التي أعمل بها، لأصدم حاتم بذلك الشبه الكبير بينهم حتى في الاسم.

ضحك ساخرا على قصة مساومة أبيها لي في الأموال التي سيأخذها حتى يدعني اصطحب أطفالها إليها.

وقد أصبحت الآن حرة، فزوجها قد سجن على خلفية أفعاله واستطعنا رفع قضية خلع، وفي الأخير انتصرنا.

هذه هي معركتي الأولى التي أفوز بها.

والثانية هي أن الرواية التي رغبت في نشرها لتصل قصة دارين لجميع الناس قد تمت، ولكنها قد حملت بعض التعديلات، كقصة حبي الزائفة كَرَدٍّ عليك، أرد الآن بعد الثلاثة أشهر.

لعلك تقرأ ما دونته، فتدرك كم أنا قوية للغاية، فلقد استطعت تجاوزك، ليس ذلك فقط، بل أدعوك لحضور حفل توقيع رواية تحكي عن خداعك لي.

تمت ١٩_٩_٢٠١٩